عبد الوهاب مطاوع

تحية المساء

الدار المصرية اللبنانية

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: تحية المساء.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة

تحية المساء

عبدالوهاب مطاوع

هذا الكتاب: تحية المساء..

في تاريخ صدور هذا الكتاب يكون مؤلفه الكبير عبد الوهاب مطاوع، قد أمضى نحو عشرين عاماً، منذ بدأ تحرير باب (بريد الجمعة) في العدد الأسبوعي من جريدة الأهرام..

وهو باب يحرص القراء على قراءته، لما يحتويه من عرض جذاب لمعرفة بعض الصور الحقيقية لما يعانيه بعض أفراد بعض أفراد المجتمع المصري المعاصر - رجالا ونساءً، من مشاكل وهموم، تعترض حياتهم الاجتماعية أو تعصف بآمالهم الشخصية في حياة سعيدة خالية من تلك المشاكل والهموم.

ويتلقى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع مئات الخطابات من القراء، الذين يلجأون إليه لحل مشاكلهم وإرشادهم إلى الطريقة المثلى للتخلص من تلك المشاكل والهموم.. ودون ذكر أسماء أصحاب تلك المشاكل، يقوم الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بصياغة ماورد ذكره في خطابات القراء بأسلوب أدبي دقيق رقيق، ويعبر عن كل مشكلة شخصية باعتبارها من المشاكل، التي تهم المجتمع المصري ككل. ثم يقول لصاحب - أو لصاحبة - المشكلة - الشخصية ما ألهمه الله من حل، تتجلى فيه قدرة المؤلف على التوصل إلى حلول صائبة تقوم على مبادئ وقواعد علم النفس وعلم الاجتماع والقدرة الفائقة على مواساة الحزانى والمهمومين..

الناشر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

حين يصدر هذا الكتاب متضمناً مجموعة جديدة من القصص الإنسانية الواقعية التي أعرضها أسبوعياً في بريد الجمعة بالأهرام، أكون قد أمضيت 20 عاماً على بدء تعاملي مع هموم البشر ومشاكلهم الإنسانية، منذ أولاني القراء ثقتهم الغالية وائتمنوني على أسرارهم وأحزانهم.

وقد تذكرت وأنا أُعِّد مواد هذا الكتاب للنشر الأديب والروائي الفرنسي أونوريه دي بلزاك، ذلك أنه قد راح على مدى سنوات طويلة يكتب في الصحف الفرنسية فصولاً أدبية، تصور واقع الحياة الباريسية في زمنه، وينشرها أسبوعاً بعد أسبوع تحت عنوان شامل، هو «الكوميديا الإنسانية»، فاعتبر النقاد هذه السلسلة الطويلة من القصص والصور الأدبية مرآة صادقة لأحوال المجتمع والبشر والقيم السائدة بينهم في الفترة، التي كتب فيها بلزاك فصوله هذه.

ولقد أصدرت حتى الآن ما يزيد عن 28 كتابًا من هذه القصص الإنسانية التي عالجتها في بريد الجمعة.. فخطر لي السؤال، وأنا أراجع مواد هذا الكتاب.. تُرى ما العنوان الموحد الذي كنت سأختاره لهذه المجموعة المتتالية من الكتب، التي ضمنتها نماذج مختارة من قصص البشر وهمومهم، لو كنت قد فكرت في ذلك منذ البداية؟ وإذا كانت الصحافة كما علمونا قديما - في قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة - هي مرآة المجتمع .. فماذا تقدم لنا مرآة بريد الجمعة من أحواله وآلامه وأحلامه؟

وبعد تفكير طويل، وجدتني أقول لنفسي أنه لو رجعت مياه النهر إلى المنبع من جديد، وهو حلم مستحيل للأسف، لكنت قد اخترت لهذه السلسلة من الكتب عنواناً شاملاً هو «الدراما الإنسانية».. تشبهًا بسلسلة مقالات وكتب بلزاك، التي صورت أحوال البشر والمجتمع في عهده، ولكان هذا العنوان قد عبر بصدق عن مضمون هذه القصص والصور الإنسانية، ولكن الأوان قد فات الآن لتحقيق هذه الرغبة.. ولم يبق إلا الأمل في أن أكون قد أديت الأمانة التي حملني أياها المهمومون من البشر، حين كتبوا إليّ بأحزانهم وأفراحهم، وأن أكون قد أخلصت النصح والمشورة لهم، خلال تلك السنوات الطويلة الحافلة بكل غريب وعجيب من أحوال النفس البشرية.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرهان الخاسر!

أكتب إليك وأنا مشوشة الذهن وضعيفة التركيز، فأنا سيدة في الأربعين من عمري، تزوجت زواجاً تقليدياً عن طريق الأهل.. لكنني أحببت زوجي بعد ذلك بشدة وسافرنا معاً للعمل بالخارج لمدة عشر سنوات أنجبنا خلالها ولدين، وكان لي نعم الزوج والمحب المخلص، ولم ألحظ عليه طوال ذلك أية عيوب أو لعلي هونت دائماً من شأن أي عيب لمسته فيه كما ينبغي دائماً للزوجة المحبة أن تفعل مع زوجها، ثم رجعنا إلى بلدنا وعاد زوجي إلى عمله السابق وعدت أنا كذلك إلى عملي، وبدأ هو القيام ببعض المشروعات التجارية إلى جانب عمله فوقفت إلى جواره أشجعه وأحافظ على أمواله حتى اتهمني البعض بالوصول إلى حد البخل مع نفسي وابني من أجله، أما هو فلقد كان مهتماً بالظهور بمظهر رجال الأعمال.. ومن حقه أن يفعل ذلك.. وتحملت هذه الفترة من أجل مستقبل ننعم فيه بجني ثمار غربتنا وشقائنا ولم أطالبه بالرغم من مشاركتي له في كل شيء - بأن يكتب إحدى الشقق بإسمي حين أصبح لنا شقة بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية وثالثة بالساحل الشمالي.

ومضت الأيام بنا وهو يتقدم في عمله ومشروعاته حتى أصبح من الأثرياء، وبدأت أسمع منه نغمة غريبة لم أسمعها من قبل وهي أنني معقدة لأنني قد تربيت تربية متزمتة وهو لا يريد لابنينا أن ينشأ معقدين مثلي، وأنني لست حريصة على بيتي وابني، وتلفت حولي أبحث في نفسي وفيمن حولي عن مبرر لهذه الاتهامات فلم أجد ما يدعوه لمثل هذه الشكوى، فأنا على درجة عالية من الثقافة والتعليم وأقرأ باستمرار وأحرص على الاستفادة بآراء المتخصصين في التربية.

ثم لاحظت بعد ذلك أن الابنين قد بدآ يسخران من توجيهاتي ونصائحي لهما ويصفانها بتشجيع من أبيهما بالتزمت مع أنني لست متزمتة.. وتواكب مع ذلك أن بدأ زوجي يحكي لي عن زميلة له في العمل يسيء زوجها معاملتها إلى حد الضرب والإهانة، ويحثني على دعوتها لزيارتنا دون زوجها واتخاذها صديقة لي لكي نخفف عنها مأساتها، واستجبت لرغبته وبدأت أدعوها للخروج معنا وشجعني على ذلك أنها لا تتمتع بأي مسحة من الجمال ومتزوجة ولديها ولدان في مثل عمر ابنيَّ.

وبعد ذلك بدأت ألاحظ كثرة غياب زوجي واختلاقه الأعذار الكثيرة للتأخر في الخارج، كما كثرت الخلافات بيننا حول ذلك.. وفي أحد هذه الخلافات فوجئت به يصارحني في هدوء غريب بأنه قد تزوج من أخرى وجد معها نفسه.. وأنه قد جاء الوقت الذي يزيح فيه هذا السر عن صدره لكي يستريح، ثم طالبني بعد ذلك بأن أحدد مصير الأسرة ولسوف يفعل ما أريد، مع مراعاة أنه مازال يحبني ولا يستطيع أن يستغني عني أو عن الأخرى..

وهكذا وضع زوجي من تحملت معه صعوبات البداية وعناء الغربة وشاركته السراء والضراء في ميزان واحد مع الأخرى التي لم تعرفه إلا وهو ناجح وثري

.. ولم أتحمل الموقف وثارت كرامتي وطالبته بالطلاق فراح يضغط عليّ بكل الوسائل للعدول عنه وقام بتشويه صورتي أمام الأقارب والجيران بل وزملاء العمل قائلاً للجميع إن من تطلب الطلاق دون سبب تحرم من رائحة الجنة، وإن زواجه بأخرى ليس سببا مقنعاً لطلب الطلاق.

وراح الجميع يضغطون عليّ للتنازل عن طلب الطلاق حرصاً على الأسرة وابنيَّ والأموال التي سأحرم منها بالانفصال، بل ذهب البعض إلى تحذيري من نظرة الناس للمرأة المطلقة، وواصل زوجي ضغطه عليّ للتنازل عن طلب الطلاق وآلمني أن وجدت الابنين في صفه يشاركانه الضغط على من أجل هذا الغرض.. وحين ناقشتهما في ذلك فوجئت بهما يقولان لي إن والدهما على حق فيما فعل وإنه لو كان قد وجد معي ما وجده لدى الأخرى لما تركني! بل إنهما ذهبا إلى أبعد من ذلك وأنذراني بأنهما في حالة الطلاق سوف يذهبان للإقامة مع أبيهما.. وقال لي أكبرهما إنه في الثانوية العامة ويرغب في الالتحاق بكلية الطب ويحتاج إلى دعم أبيه له لمواجهة ثمن الدروس الخصوصية الكبير.. أما أصغرهما فلقد وعده أبوه بالاشتراك في ناديه المفضل ولا يريدني أن أحرمه من ذلك! ولقد كان ابني الأصغر هذا بالذات لا يطيق البعد عني لحظة واحدة.. لكن والده زيَّن له ولأخيه ذلك وقام بشراء الملابس الفاخرة لهما.. واصطحبهما إلى النزهات وللإقامة في الفنادق حتى أصبح ذلك شيئاً معتاداً في حياتهما وأصبحا في كل مناقشة بيني وبينهما يصيبانني بالحسرة من طريقة تفكيرهما.

ولقد كان من المفروض أن أضعف أمام كل هذه الضغوط وأقبل بالأمر الواقع وأستكين.. لكنني أصبت بالجنون وصممت على الطلاق متنازلة من ذلك عن كل حقوقي. ودبر زوجي السابق لي شقة صغيرة من غرفة واحدة وصالة في أحد الأحياء البعيدة لكي أترك له الشقة الواسعة التي كنت أقيم فيها، وتركت الشقة الكبيرة بالفعل وانتقلت إلى الشقة الصغيرة مع وعد منه بأن يزورني ابنايّ مرة كل أسبوع.

وهكذا انتهى كل شيء في حياتي وخسرت كل شيء من البيت إلى الأسرة إلى ابنيّ الذين تركتهما نزولا على رغبتهما لكيلا أحرمهما من حياة الترف التي يعيشانها مع أبيهما ولم يخسر هو أي شيء.

لقد طلبت الطلاق يا سيدي وأصررت عليه للنهاية أملاً في أن يرجع زوجي إلى عقله وأملاً في أن يشعر ابناي بأنهما لا يستطيعان الحياة بدوني.. لكن أملي خاب في كل شيء وها قد مضى عامان عرفت خلالهما أن زوجي السابق قد تزوج من زميلته في العمل التي حثني على أن أتخذ منها صديقة لي ووثقت فيها ثقة مفرطة.. وعلمت أيضاً أنه حين اعترف لي بزواجه من أخرى لم يكن قد تزوجها بعد وإنما كان يمهد لذلك.. فإذا تقبلت الأمر الواقع واستكنت تحصل هي على الطلاق من زوجها ويتزوجان، فلما تمسكت بالطلاق تزوجها خلال فترة النزاع بيني وبينه.

وأنا الآن أعيش وحيدة في حجرة كالسجن، أعود من عملي فلا أخرج من بيتي إلا صباح اليوم التالي.. وأعيش في انتظار موعد زيارة ابنيّ لي، ولقد بدأت الزيارات في البداية كل أسبوع، ثم تباعدت فأصبحت كل أسبوعين أو ثلاثة ثم وصلت الآن إلى كل ثلاثة أشهر، وهما يتعللان في ذلك بالدراسة والمذاكرة وأنني يجب أن أسعد باهتمامهما بالاستذكار!

ولست أفهم في النهاية كيف تتحول مشاعر رجل من الحب الشديد والإخلاص إلى القسوة الشديدة والمشاعر العدائية؟. أما ما يكاد يذهب بعقلي فهو كيف يتحول ابناي عن حبي على هذا النحو؟ إنني أشعر بالضعف والعجز وقلة الحيلة وعدم الثقة في أي إنسان وبأن حياتي لا معنى لها.. وأين العدالة في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لقد كنت على استعداد لأن أتفهم موقفكِ حين أصررتِ على طلب الطلاق ورفض الأمر الواقع الذي أراد زوجك فرضه عليكِ بالإكراه المعنوي، لو كنت قد انطلقت في ذلك من موقف مبدئي لزوجة أحبت زوجها وأخلصت له وساندته في كفاحه حتى بدأ يجني ثمراته، ثم رفضت بعد ذلك أن تشاركها فيه أخرى وانتصرت لكرامتها في وجه ضغوط ابنيها العاطفية عليها للتنازل عن مطلبها وتحملت في سبيل ذلك تبعات اختيارها ورضيت بها. إذ أنه بغض النظر عن أن يتفق معك الأهل والابنان في ذلك أو يختلفوا فإنه في النهاية موقف مشروع يجيزه لك الشرع والقانون اللذان يعطيان الزوجة حق الاختيار إذا أراد زوجها أن يتزوج عليها بين الاستمرار في حياتها الزوجية معه وبين رفض ذلك والتمسك بالانفصال عنه..

لكنك يا سيدتي لم تطلبي الطلاق وتتمسكي به في وجه كل الضغوط التي تعرضت لها للتنازل عنه من زوجكِ السابق وابنيكِ وأهلكِ انطلاقاً من رغبة حقيقية في الانفصال، وإنما من منطلق آخر مختلف تماماً، هو «الأمل» في أن يدفع إصراركِ العنيد على الطلاق، زوجك إلى التراجع عن زواجه بالأخرى وابنيك إلى اكتشاف أنهما لا يستطيعان الحياة بعيداً عنك.. فكأنما قد اعتمدت في ذلك على سياسة دفع الأمور إلى حافة الهاوية التي تتبعها بعض الدول للضغط على الخصم فتحشد قواتها على الحدود معه وتتهيأ للحرب ضده، لكي يتراجع عن موقفه ويقبل بما لم يقبل به من قبل بالوسائل السلمية.

وهو رهان خطير لايقدر عليه إلا من يثق في قدراته وحساباته ويعرف جيداً أن الطرف الآخر سوف يتراجع في اللحظة الأخيرة قبل اندلاع الحرب.

وفي حالتك الشخصية فلقد كان هذا الرهان نفسه دليلاً على أنك لاترغبين في الطلاق من زوجك وفقد ابنيك وإنما في «الفوز» بهم جميعاً عند بلوغ الأمور بينك وبينهم حافة الهاوية أو حتى بعد السقوط فيها بقليل، وهو رهان خاسر أخطأت للأسف كل حساباته مع اعترافي لك بحقك العادل في رفض مشاركة أخرى لك في

زوجك، ذلك أن دفع الأمور إلى الهاوية على هذا النحو سياسة لا يلجأ إليها إلا الطرف الذي يثق في قوته من ناحية، وفي عجز خصمه عن الصمود للنهاية من ناحية أخرى.. وأنت ياسيدتي قد أسأت تقدير عناصر القوة والضعف في موقفك وموقف زوجك السابق، فلقد رأيت نفسك في موقع القوة التي تسمح لك بدفع الأمور إلى هاوية الحرب، ورأيت زوجك السابق في موقف الضعف الذي يدفعه للتسليم قبل انطلاق أول طلقة مدفع، مع أن واقع الحال كان كفيلاً بأن يلفت نظرك إلى أنه يتمتع في صراعه معك بعناصر للقوة لم تتوافر لك للأسف منها استقطابه لابنيه في صفه وثقته في اختيارهما له دونك بعد الانفصال نظراً لعلاقته الوثيقة بهما وقدرته المالية على إغرائهما بالانحياز إليه دونك وارتباط مستقبلهما الدراسي والعملي به، إلى جانب قدرته على الحركة والفعل استناداً إلى مقدرته المادية التي لاتتوافر لك سواء قبلت بزواجه من الأخرى أو رفضت، إلى جانب وجود هذه «الأخرى» نفسها في حياته وإمكان استغنائه بها عنك.. ولقد أنذرك ابناك بأنهما سوف ينضمان لأبيهما في حياته الجديدة إذا تمسكت بمطلب الطلاق منه للنهاية.. وهو إنذار قاس ولا إنساني ويكشف عن خلل غير مفهوم في علاقتك بهما.. لكنه في الحساب العملي عنصر قوة لزوجك وعنصر ضعف في موقفك..

فعلى أي شيء إذن بنيت حساباتك ووثقت في أنك إذا تمسكت بالطلاق حتى النهاية بل وإذا حصلت عليه أيضا فلسوف يدفع ذلك زوجك إلى التخلي عن زواجه من الأخرى وابنيك إلى العودة لك؟

إن الطلاق سلاح خطير يؤثر تأثيراً فادحاً على حياة الزوجين والأبناء، ولهذا فإنه لا يجوز لعاقل أن يستخدمه كورقة ضغط للحصول به على تنازلات من الطرف الآخر مالم يكن راغباً فيه بصدق ولأسباب تنبع من نفسه وظروفه وليس من الأمل في أن يدفع الطرف الآخر للقبول بما كان يرفضه من قبل - كما أنه ليس من الحكمة أن يتخذ الإنسان موقفاً يعتمد فيه على «الأمل» في الآخرين وليس على حسابات واقعية تتعلق به وتصدر عنه.

فإذا كنت تتساءلين عن العدالة في كل ذلك فإني أقول لك إن في الحياة من صور الظلم الإنساني والبعد عن روح العدالة الكثير.. كما أن فيها من صور العدل الإلهي والخير الكثير أيضاً.. وليس سؤالك عن العدل هو الأجدى بالتوقف عنده.. ولاسؤالك أيضاً عن كيف تتحول مشاعر رجل من الحب الشديد إلى القسوة المفرطة والعدائية.. لأن تحول المشاعر وارد وفقاً لتطور العلاقات الإنسانية ومتغيراتها.. وإن كان من الثابت كذلك أن مشاعر الحب الحقيقي الصادق قد تنتهي ذات يوم أو تفتر تبعاً للتطور الوجداني للإنسان ودورة الأيام، لكنها أبداً لا تنقلب إلى نقائضها من الكره والحقد والعداء، وإنما ما يستحق التوقف أمامه بالفعل فهو سؤالك المفزع كيف يتحول ابناك عن حبك على هذا النحو المؤلم!

والحق أنني قد أفهم تأثير الاعتبارات المادية والمستقبلية على قرار ابنيك الانحياز لأبيهما وتفضيل الحياة معه بعد الانفصال عنك، لكني لا أفهم أبداً ألا يتعاطف ابناك معك في نزاعك مع أبيهما قبل الانفصال ولو باتخاذ موقف الحياد بينكما، ولا كيف يضغطان عليك للقبول بالأمر الواقع ولا يبذلان في الوقت نفسه مساعيهما هذه مع

أبيهما لكي يعدل عن قراره بالزواج من أخرى.. ولا تفسير لهذا الموقف المؤلم سوى أنه يكشف عن نوع من الخلل في علاقة هذين الابنين بك وعلاقتك بهما، وعن أن حياتهما بينك وبين زوجك السابق لم تكن فيما يبدو خالية تماماً من بعض ما يدفعهما لتقبل فكرة زواج أبيهما من أخرى وعدم الانزعاج لها.. وفي كل الأحوال فإن الخسارة الإنسانية فيهما قاسية لأم مثلك مهما كان موقفها من أبيهما أو موقفه منهما.. ومن حقك أن تشعري بالحسرة والألم وضياع كل شيء من يديك بسبب قسوة الأيام وسوء الحسابات.. وتقلب القلوب.... بكل أسف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحية المساء

أنا سيدة في الرابعة والثلاثين من عمري.. ولي قصة أريد أن أرويها لك وأن تشاركني فيها.. فأنا أقرأ بريد الجمعة منذ أكثر من عشر سنوات.. وكثيراً ما فكرت في الكتابة إليك في مواقف عصيبة عديدة شهدتها حياتي إلى أن جاءت الآن اللحظة المناسبة.. ولأبدأ من البداية فأقول لك إنني نشأت بين أبوين طيبين وشقيق يكبرني بعامين.. أما أبي فإنه رجل جاد في حياته.. وشغل مناصب قيادية ويمزج بين الشدة والحنان في تعامله مع أفراد أسرته، وأما أمي فربة بيت جامعية تؤمن بزوجها في كل شيء ولا ترى رأياً مخالفاً لرأيه وقد تفرغت لأسرتها منذ ارتبطت بأبي.. ونعم الاثنان معاً بحياة زوجية موفقة.

وفي بداية مرحلة الدراسة الجامعية.. خفق قلبي لأول مرة لشاب من أبناء الجيران وارتبطت به عاطفياً .. وعانيت مرارة الإحساس بالذنب تجاه أبي وأمي لخيانتي لثقتهما فيَّ، وأردت أن أتخلص من هذه المعاناة بعد تعمق الحب في نفسي فصارحت أمي بتعاهدي مع هذا الشاب على الزواج عقب التخرج. وطلبت منها أن تمهد لي عند أبي لكي يقبل بقراءة الفاتحة بين أسرتي وأسرة هذا الشاب.. لكي يصبح حبنا علنيًا ومشروعاً.. فنتقابل تحت أعين أسرتينا.. بدلاً من لقاءاتي المختلسة معه في الشوارع أو في بيوت الجيران المشتركين خلال زياراتي لصديقاتي بها.

ففوجئت بثورة أمي العارمة ضدي ورفضها القاطع لهذا الاختيار.. وتهديدها لي بفضح سري لدى أبي لكي يعاقبني عقاباً صارماً على فعلتي.. وانهرت وسألتها عن سبب هذه المعارضة الحادة فأجابتني بأن هذا الشاب وإن كان من أسرة طيبة إلا أنه من فرعها الفقير ولا يملك شيئاً ويعيش مع أمه على معاش أبيه ولن يستطيع حتى ولو انتظرته عشر سنوات كاملة أن يدبر إمكانات الزواج، وبكيت لأمي كثيراً ورجوتها أن تقف إلى جانبي بدلاً من أن تستعدي عليّ أبي، وصارحتها بأنني أحبه منذ سن السابعة عشرة وأنه متدين ومستقيم وطيب ويتحمل مسؤوليته عن أمه ويعمل في الإجازة الصيفية ليوفر مصاريف دراسته.. وأنه ليس ذنبه أن أباه قد مات وهو في الخامسة عشرة ولم يعد له نصير في الحياة.. ولسوف يكافح ويسافر بمجرد تخرجه بعد شهور للعمل في الخارج ويبني مستقبله إلخ.. فلم يؤثر استعطافي لها شيئاً..

وتصاعدت الأمور بعد ذلك سريعاً وفوجئت بأبي الذي لم يضربني ذات يوم، ينهال عليّ بالضرب المبرح ويمنعني من الذهاب للجامعة بل ويأتي بنجار ليغلق نافذة غرفة نومي التي تطل على مسكن الشاب، ولم يكتف بذلك وإنما هدده بالضرب والإيذاء إذا لم يكف عن محاولة الاتصال بي..

وبعد أيام سمح لي أبي بالخروج وتوجهت للجامعة.. وأنا خائفة.. والتقيت بهذا الشاب.. فصارحني بأنه مازال يتمسك بي ويعرف أنه لن تكون له حياة مع أية فتاة أخرى سواي.. لكنه لا يريد لي الأذى ولهذا فإنه سوف يقطع كل صلة له بي

حرصا عليّ، وسيظل في نفس الوقت مقيما على حبي وسيظل نظره معلقا دائما بالنافذة المغلقة ليشعر بأنه معي في كل وقت.. وبكي في الشارع وهو يقول لي إنه يعذر أبي في هياجه عليه إذ ماذا يملك شاب يتيم فقير مثله لكي يقدمه لابنته؟ وبكيت معه.. وأقسمت له أنه لن يمسني بشر سواه، وأنني سأظل أنتظره إلى أن يتغلب على ظروفه ويتقدم لي ولو بعد عشر سنوات، ورفضت كل محاولاته لإعفائي من هذا العهد.. وافترقنا وأنا أذكره بعهدي له.. وأطلب منه أن يراقب نافذة غرفتي كل ليلة لكي يتلقى مني تحية المساء.. وهي إطفاء نورها وإضاءته ثلاث مرات متتالية..

وعدت إلى حياتي بعد ذلك وكففت تماماً عن الإشارة لموضوع هذا الفتى مع أمي واكتفيت بتسقط أخباره عن طريق صديقاتي من بنات الجيران حيث يزور إخوتهم.. ويعرفنه جميعا ويحترمنه.. وواظبت على تحية المساء كل ليلة في موعدها.

وفي عامي الجامعي الأخير تقدم لي شاب ممتاز من أقارب أمي فرفضته بلا تفكير.. ورفضت مجرد الحديث في موضوعه، وثارت أمي عليّ واتهمتني بأنني مازلت على صلة بجارنا الشاب.. وأبلغت أبي بشكوكها فهاج من جديد وانهال عليّ ضرباً وركلاً حتى أصبت بالإغماء. وتوجه إلى بيت هذا الشاب وانهال عليه وعلى أمه سباً ولعناً وتمادى لأكثر من ذلك فصفعه صفعة مدوية أمام أمه.. وصرخت الأم باكية فهدأ ابنها من روعها ولم يفقد أعصابه ولم يزده عن أن قال لأبي إنه يظلمه وإن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه مظلوم ولهذا فهو يفوض أمره إليه وحسبه الله وهو نعم الوكيل، كما أنه لن يخرج على حدود الأدب معه حتى ولو خلع حذاءه وضربه. فبهت أبي وانصرف مضطرباً وروى لأمي كما عرفت فيما بعد ما حدث وقال لها إنه يشعر بالخوف من نظرة القهر والغلب في عين هذا الشاب بعد أن ضربه.. فانعقد لسانه وهرول خارجاً من مسكنه وهو يشفق على نفسه من أن تدعو أمه عليه بسوء.. وانتهت هذه الأزمة في النهاية برفضى للخطيب المرشح لي.. وبعد عام آخر تكررت القصة بنفس تفاصيلها ورفضت خطيباً آخر بإصرار دون إبداء أية أسباب، وهاجت أمي وأبي من جديد وكررا نفس الاتهام لي بأنني مازلت على علاقة بجاري الشاب.. وانهال عليّ أبي مرة أخرى ركلاً وصفعاً، وبالرغم من ندمه على مافعل مع هذا الشاب في الأزمة السابقة فلقد كرر نفس المأساة وتوجه إلى بيته وانهال عليه وعلى أمه بالتهديد والوعيد.. وفقد السيطرة على نفسه مرة ثانية وصفع فتاي بقوة.. وهم بتكرار الصفع فأمسك الفتى بيده بقوة وقال له إنه قادر على الدفاع عن نفسه ورد الأذى بمثله لكنه لايسمح لنفسه بذلك لأنه في مقام والده.. وإكراماً للجيرة التي لم يرعها هو.. وإكراماً أيضاً لأنه والد الفتاة التي كان يتمنى من كل قلبه أن يتزوجها. ورجع أبي من عنده واجماً. وراح الفتى يكفكف أمه وعيناه تدمعان حزناً وتأثرا.

وازددت إصراراً على موقفي...

وتخرجت في كليتي وعملت بمساعدة أبي في وظيفة إدارية في إحدى شركات الفنادق الكبرى.. ووجدت نفسي قد تخطيت الرابعة والعشرين وأعمل، ومن حقي

أن أفكر في حياتي الخاصة.. فصارحت أمي بأنني لن أتزوج إلا من اختاره قلبي منذ سن السابعة عشرة وحرمت نفسي منه طوال السنوات الماضية التزاما بوعدي لها ولأبى.. ورجوتها أن تستأذن أبي في استقبال جاري مع أسرته لطلب يدي .. خاصة وقد عمل بقرية سياحية بالغردقة.. وتحسنت ظروفه المادية بعض الشيء.. وأملت أن تكون الأعوام قد ألانت المواقف المتصلبة.. ففوجئت برفض أبي وإعلانه لي ولأمي أنه يفضل أن أصبح عانساً على أن يقبل زواجي من شاب تحدى إرادته! وعبثاً حاولت إقناعه بأن أحداً منا لم يتحد إرادته وأننا قد قطعنا علاقتنا بالفعل منذ أكثر من 4 سنوات دون جدوى! وضقت بهذا الموقف المتعنت.. فلجأت إلى عمي وطلبت منه أن يستضيفني عنده بعض الوقت.. وأن يتدخل بيني وبين أبي.. واستمع عمي إلى قصتي ووعدني بمحادثته ولكن بعد أن يلتقي بجاري أولاً ويتأكد من أخلاقياته وجديته، وزار عمي بيت جاري خلال إجازته الشهرية من عمله بالغردقة وجلس إليه وإلى أمه واستمع منهما لما فعله بهما والدي على مدى 3 سنوات وأكثر.. وتأثر بظروف هذا الشابه والتزامه الخلقي وبره بأمه وصبره على مانالله من أبي.. ووعده بمساندته والتقى بالفعل بأبي وصارحه بأنني أرغب هذا الشاب وأنه لا شيء يمنعني من الزواج منه ضد إرادته إلا رغبتي في ألا أخرج عن طاعته، وأنه من الحكمة أن يكون مرناً معي لكيلا يدفعني دفعاً لشق عصا الطاعة عليه، وزكّى فتاي عنده، وشاركه أخي الوحيد الذي كان قد حصل لتوه على الماجستير في هذا المسعى وشهد لأخلاقياته واستقامته.. وبعد عذاب وعناء قبل أبي بزواجي من هذا الشاب قبول الكاره المضطر، وقيَّد موافقته بأنه لن يجهزني للزواج ولن يشتري لي أي أثاث إلا بعد أن ينجح هذا الشاب في الحصول على شقة مستقلة عن مسكن أمه.. وأيدته أمي في موقفه المتحفظ بدعوى اختبار صدق نية فتاي تجاهي وأنه ليس طامعاً في مال أبي!

وتمت خطبتي له في أضيق الحدود وبحضور عمي فقط من أهل أبي، وبدا أبي خلال حفل الخطبة واجماً متحفظاً وكذلك أمي.. لكن فرحتي بالرغم من ذلك كانت طاغية.

وسعيت لدى مديري لنقل خطيبي من القرية السياحية التي يعمل بها في الغردقة إلى الشركة التي أعمل بها.. ووفقني الله في مسعاي بعد أن علم مديري بقصتنا القديمة وقابل خطيبي واقتنع به وبمؤهلاته.

ولم يسترح أبي لوجودنا في نفس المكان فطالب خطيبي بعقد القرآن على وجه السرعة.. وعقدنا قراننا في نفس الجو المتحفظ، وبعد القرآن بعدة أسابيع سألت نفسي عما يدعوني للانتظار أعواماً أخرى حتى يستطيع خطيبى توفير مسكن مستقل لنا، وفي مقدوري أن أقيم معه في شقته القديمة وهي واسعة ومريحة وأمه سيدة طيبة وتحبني وتشفق عليّ مما تحملته من أجل ابنها.. وأستأذنت أبي في ذلك على استحياء فقال لي في ضيق افعلي ما تشائين بنفسك.. فلقد يئست منك نهائياً!

وبالرغم من تصريحه لي بالانتقال إلى بيت زوجي إلا أننى كرهت كعادتي أن أفعل شيئاً لا يرضى عنه رضاء تاما.. وتمسكت بألا أخرج من بيتي إلا حين يأذن لي

ذلك بنفس راضية، وحدثت أبي في الأمر.. فأعلن لي موافقته واشترى على وجه السرعة بعض الملابس والأدوات المنزلية.. وأدوات المطبخ. والعطور إلخ كأنما قد عزّ عليه في اللحظة الأخيرة أن أزف إلى عريسي بلا أي جهاز وكرر لي وعده بأن «حقي» محفوظ عنده وأنه سوف يؤثث لي المسكن الجديد حين نحصل عليه. ولم أتمالك نفسي حين قال لي ذلك فارتميت على صدره وأنا أقبله وأشكره ودموعي تسيل وهو ينظر إليّ في حرج كأنما لا يصدق أنني مازلت أحبه بعد ماجرى بيننا، فقلت له وكيف لا أحبه بالرغم مما حدث وهو أبي.. وسندي وعزي.. ومرجعي الذي أرجع إليه في الملمات ولم يفعل ما فعل إلا حرصاً عليّ؟ فدمعت عيناه وأقسم ألا أنتقل إلى بيت زوجي إلا بعد حفل عشاء يقيمه لي في أحد الفنادق، وبعد أن أرتدي فستان الزفاف الأبيض.. ثم أعطى أمي مبلغا من المال وطلب منها شراء فستان لي، وحدد يوم الخميس لحفل العشاء وارتداء فستان الزفاف، واجتمعنا 20 شخصاً في حفل عشاء بفندق كبير وارتدى خطيبي بدلته الجديدة.. وجلست إلى جواره ونحن نطير من السعادة، وفي آخر الليل توجهنا إلى مسكنه وبدأت حياتي الزوجية معه. ولن أطيل عليك أكثر من ذلك.. وإنما سأقول لك فقط إنني عشت ومازلت أعيش أجمل أيام حياتي مع زوجي الذي تحملت الضرب والإهانة من أجله.. وتحمل هو الإساءة والأذى من أجلي ولم تتغير مشاعر كل منا أو يفقد أمله في الآخر.

وعلى عكس كل ما قيل لي من تحذيرات طويلة من الحياة المشتركة مع والدة زوجي، فلقد وجدت معها راحتي وأماني ونعمت بعطفها على وحبها لي وتقديرها لتمسكي بابنها.. فضلاً عن أنها سيدة طيبة وحكيمة ولا تتدخل فيما لا يعنيها وتراعي دائماً خصوصياتي.

ولقد أنجبت بعد حوالي عامين زواجي طفلاً جميلاً لم يتردد زوجي في موافقتي على تسميته باسم أبي، وأنجبت بعد عامين آخرين طفلة رحبت بشدة بتسميتها على اسم والدته.. التي تحملت معظم عبء رعاية الوليد الأول عني.. وأضافت رعاية المولودة الجديدة إلى مسؤوليتها.

والحمد لله على كل شيء.. فابني الآن في الثامنة من عمره وأخته في السادسة وهما متعة أبي الأولى في الحياة الآن.. كذلك أمي، أما زوجي الذي كان مرفوضاً منهما من قبل فلقد أصبح أقرب الناس إليهما خاصة بعد سفر أخي الوحيد للخارج للحصول على الدكتوراه منذ عامين، وهو الذي يلبي مطالبهما ويقضي مصالحهما، ويعاملهما بحب واحترام.

وأما الشقة القديمة التي تزوجنا فيها فلقد أقنعت زوجي بأن ما ندخره للحصول على مسكن جديد.. فإن ابني وبنتي أحق به.. لأنني أشعر بالراحة فيها فضلاً عن قربها من مسكن أسرتي الذي يتيح لي زيارة أبي وأمي كل يوم.

ولقد سمعت بحماس أبي لرأيي هذا بالرغم من موقفه السابق من مسألة الشقة.. وهكذا فقد جددنا الشقة القديمة ببعض مدخراتنا حتى أصبحت كالعروس. وغطينا الأرض بالسيراميك وجددنا الحمامين.. وأعدنا طلاء الجدران.. فإذا بأبي يقول لي

إنه يعتبر ماحدث تنفيذا لشرطه السابق علينا لكي يؤثث لي مسكني.. وإذا به يشترى لي أثاث 4 غرف ممتازة، وكان يوماً سعيداً يوم وقفت سيارة نقل الموبيليات الكبيرة أمام بيتنا.. وراح الحمالون ينزلون جهاز العروس الذي تزوجت قبل عدة سنوات.. ويأخذون بدلاً منه الأثاث المتهالك، وازددت حباً لأبي وأمي وسعادةً بزوجي وولديَّ.

أما عن زوجي فنحن متفاهمان في كل شيء.. والحب القديم الذي جمع بيننا منذ الصبا ازداد عمقاً ورسوخاً.. وكلما اختلفنا حول أي خلاف عابر تذكر كل منا ما صبر عليه من أذى وحرمان من أجل شريكه فيذوب الخلاف.. ويعود الصفاء ولقد كتبت لك رسالتي هذه بعد أن انتهت كل المشاكل لكي أقول لك إنني قد قرأت في بريدك عدة رسائل لفتيات تحدين أهلهن وتمسكن بشبان أجمع الأهل على أنهم لا يصلحون لفتياتهم وأن عيوبهم ظاهرة ولا تُخفى على العيان فشققن عصا الطاعة عليهم وتزوجن منهم، ثم لم تمض سنوات حتى صدمن في شخصيات أزواجهن الذين هجرن الأهل من أجلهم، وتجرعن كؤوس الشقاء معهم.. ولُمن أنفسهن أنهن لم يستمعن لنصيحة الأهل في الوقت المناسب بعد أن خفت حدة العاطفة وظهرت المشاكل والشخصيات الحقيقية.. كما قرأت تعليقاتك على هذه الحالات بأن هذا ما يحدث بالفعل في حالات كثيرة من حالات الزواج التي تشق فيها الفتيات عصا الطاعة على آبائهن وأمهاتهن ويتزوجن على الرغم من إرادتهم لكي يضعنهم أمام الأمر الواقع، ويخلفن المرارة والأسى في نفوسهم تجاه بناتهم اللاتي أحبوهن وطلبوا لهن السعادة والأمان.. وأن من واجب الفتيات والأبناء إذا اختلفت وجهات نظرهم مع رأي الأهل فيمن يرغبون في الارتباط بهم.. ألا ييأسوا أبداً من الأمل في نيل رضا الأهل عن اختياراتهم في الحياة.. وألا يقصروا في طلب قبولهم لشركائهم في الحياة حتى ولو لم يكونوا على اقتناع كامل بهم لكي يبدأ الأبناء حياتهم الجديدة مسلحين برضا الأهل وتمنياتهم لهم بالتوفيق والسعادة.

والحق أنني أؤيدك في ذلك وأؤكد لك بأنني أشعر بأن كل ما أصابني من توفيق في حياتي الزوجية وفي عملي إنما يرجع إلى إصراري على ألا أخرج على طاعة أبي وأمي، وألا أتزوج من فتاي إلا بعد قبولهما له حتى ولو لم يكونا مقتنعين اقتناعاً كاملاً به، كما يرجع أيضا إلى صبري على أبي سنوات طويلة إلى أن لان موقفه من زوجي وقبل به.. ثم رضى عنه، إلى جانب دعائي المتصل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجمع شملنا أنا وفتاي في حياة مشروعة يرضى عنها الله ورسوله.. وكذلك دعاء فتاي وصلاته وصومه.. وتكفيني سعادتي الآن وأنا أرى زوجي وهو يخاطب أبي «بيا عمي» عن حب حقيقي واحترام، وسعادتي بكلمات أبي وأمي عنه وكيف أن الأيام قد أثبتت لهما أن الأصل الطيب والأخلاق الكريمة وحسن المعاملة أهم من كل مال الدنيا..

كما كتبت لك أيضاً لكي تشكر عنى أبي وأمي عن كل ما قدماه ويقدمانه لي حتى اليوم من حب ومساندة.. واحترام لزوجي ووالدته.. وأرجو أن تتمسك برأيك دائماً في عدم تفضيل خروج الأبناء على طاعة الأهل.. والإصرار على أن يكافحوا

للنهاية لنيل رضاهم ومباركتهم لاختياراتهم في الحياة كما فعلت أنا.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كان الإمام ابن حزم الأندلسي يقول: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً وما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً»!

وكان الكاتب الإنجليزي الثائر توماس مان يقول «إن ما نحصل عليه بثمن رخيص قد ننظر إليه بغير اهتمام كبير، أما ما نحصل عليه بالثمن الغالي فهو دائما ما يستحق منا الاهتمام والتكريم «.

ولهذا فلا عجب ياسيدتي في أن تقبضي أنت وزوجك على الجمر لكي تحفظا عليكما سعادتكما وحبكما بعد أن كافحتما كفاحاً مريراً لتتويجه بالزواج وقبول الأهل.. وراحة الضمير لعدم خروجكما على طاعة الأبوين بالرغم من طول الصبر والانتظار.

والحق أنني أتفق معك تماماً في أن أحد أسباب توفيقك في حياتك الزوجية والعملية هو إصرارك على ألا تشقي عصا الطاعة على أبيك.وألا تتزوجي ممن اختاره قلبك على غير إرادته.. بالرغم من طول الصبر وبالرغم أيضاً من إتاحة مثل هذا الاختيار أمامك خلال سنوات الانتظار.. فلاشك في أن السعادة التي يحققها المرء لنفسه على حساب تعاسة أقرب الناس إليه وإيلامهم نفسياً وتمرده عليهم تكون دائماً سعادة منقوصة، أو سعادة يكدرها إحساس أصحاب الضمائر بالذنب تجاه أعزائهم، وكثيراً ما تصطدم مثل هذه السعادة الناقصة بسوء التوفيق في الحياة، ويجهد المرء نفسه لكي يحاول فهم أسبابه فلا يقوده تفكيره غالباً إلا أنه محروم من مباركة الأهل لحياته وتمنياتهم الطيبة له.

على أني قد أضيف إلى أسباب توفيقك في حياتك العائلية إلى جانب اعتصامك بالصبر إلى أن تنالي رضا أبويك عن اختيارك لشريك الحياة، سبباً آخر هو أن هذا الاختيار من الأصل لم يكن اختياراً متعارضاً مع أحكام العقل أو الدين، وإنما توافقت فيه أحكام القلب أحكام العقل، فالفتى لم يكن يعيبه في نظر أبويك سوى قلة إمكاناته المادية وظروفه الإنسانية كشاب يتيم لا سند له في الحياة، في حين تتوافر فيه على الجانب الآخر كل المؤهلات الأخرى التي ترشح الحياة المشتركة للنجاح والتوفيق من طيب العنصر وكرم الأخلاق والاستقامة الشخصية والتدين وحسن المعاملة، والقدرة على ضبط النفس والالتزام بالسلوك المهذب في أشد لحظات الانفعال.. ولقد تجلت فضائله هذه حين اعتدى عليه والدك أكثر من مرة، فكيف لا ترشحه هذه المؤهلات الأخلاقية إلى جانب حب كل منكما للآخر للسعادة والتوفيق معك؟

لقد أعجبني في قصتك إصرارك الذي لم يضعف على ألا ترتبطي بفتاك إلا عن رضا من الأهل على اختيارك لحياتك ولو طال بك الصبر والانتظار سنوات وسنوات.

فكأنما كنت تعملين بنصيحة العقلاء في كل زمان ومكان... والتي عبر عنها زعيم الهند الروحي المهاتما غاندي بقوله:

«لا تسلك إلى الهدف السليم إلا الطريق السليم».

ولا غرابة في ذلك، لأن الغاية الشريفة ينبغي ألا يتخذ الإنسان للوصول إليها سوى الوسائل الشريفة وإلا أساء إلى نبل مقصده وإلى نفسه وإلى الآخرين.

كما أعجبني في قصتك أيضاً أن والدك قد غلب في النهاية نداء الحكمة على نداء العناد وصلابة الرأي، فسلم باختيارك بغير أن يدفعك دفعاً إلى شق عصا الطاعة عليه، وإن كان هذا التسليم قد تأخر طويلاً حتى عتبت عليه إيذاءه البدني لك أكثر من مرة، وعتبت عليه أكثر تهوره على فتاك الشاب الوحيد اليتيم المغلوب على أمره حتى ليمد إليه يده بالأذى.. فلا يفقد الآخر سيطرته على نفسه ولا يرد عليه الأذى بالمثل، غير أنه لا لوم ولا عتاب الآن وقد تغيرت المواقف.. وكلل الحب الشريف بالزواج الموفق، وانتصر الحب الأبوي آخر الأمر في قلب أبيك على عناده وتهوره السابقين وتكشف في النهاية عن أب يحرص على سعادة ابنته ويفيض قلبه بالحب والعطف عليها، وعن رجل يحترم كلمته لها فيفي لها بوعده الذي قطعه على نفسه ويؤدى إليها «جهازها» بعد سنوات من الزواج والإنجاب، ويسعد بسعادتها ويحنو على طفليها ويرى فيهما امتداداً له ويمحو من نفسه كل آثار المرارة السابقة تجاه زوجها ويعتبره ابناً ثانياً له ويبادله الابن الجديد حباً بحب واعتزازاً باعتزاز.

أما دعاؤك إلى ربك أن يجمع الله بينك وبين من أحببت في حياة مشروعة يرضى عنها الله سبحانه وتعالى ورسوله، فلقد استجاب له ربك وأنعم عليك برفقة من تحبين والتوفيق معه وإنجاب الذرية الصالحة منه، ورضا الأبوين عنك ومباركتهما لحياتك وسعادتك وكيف لا يستجيب الله جل وعلا لدعاء القلوب المخلصة كقلبك.. وقلب فتاك وهو من قال عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الشريف ما معناه: «من لم يسأل الله يغضب عليه «

حتى لقد كان أحد الصالحين يردد دائماً في دعائه: «يامن تغضب على من لا يسألك لا تمنع عني ما قد سألتك«!

فهنيئاً لك ياسيدتي سعادتك وسلامك النفسي ورضاء أبويك عنك، وتذكري دائماً أن ما نحصل عليه بالعناء وبالثمن الغالي من أيامنا ولياليا ينبغي لنا دائماً أن نتمسك به ونذود عنه عوادي الأيام وتقلبات الأهواء، وشكراً لك على رسالتك الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بيئة الذئاب!

أبعث إليك برسالتي هذه لأحيى صاحبة رسالة «شهوة الانتقام» لإيجابيتها المطلوبة، وفهمها العميق لواجبات وظيفتها تجاه أبنائها الصغار.. فأنا يا سيدي طبيب نفسي منذ 25 عاماً، وكان موضوع رسالتي للدكتوراه «الصحة النفسية عند الأطفال وحتى البلوغ»، وعلى مدار سنوات عملي الخمس والعشرين، لم أقابل ما هو أشد تأثيراً على الأطفال في طفولتهم وحتى سن البلوغ أكثر من تبعات الانفصال السيئة لأبويهم، لا أتحدث عن الانفصال نفسه، بالرغم مما نعرفه جميعا من التأثير السيىء والسلبي لانفصال الزوجين على الأطفال، وإنما أركز حديثي على التبعات السيئة وردود الأفعال غير المسؤولة التي يقوم بها أحد الزوجين السابقين تجاه الآخر، مستخدمين في ذلك أطفالهم دروعاً بشرية تارة، وسيوفاً يغمدونها فيمن كانوا شركاء حياتهم تارة أخرى. إنني مع القول الذي يؤكد أنه إذا ما كانت الحياة الزوجية من الشقاء والتعاسة بحيث يستحيل معها أن يعيش الزوجان معاً.. فلا بأس بالطلاق لحماية الطفل من الحياة في منزل مليء بالمشاكل إذ إنه ليس هناك أسوأ من نمو طفل في جو مليء بالكراهية، ولكني أقصد بالانفصال هنا الانفصال النبيل الذي يقلل كثيراً من التأثيرات السلبية على الأطفال.. وبحكم سنوات عملي السابقة فإنني أقول إن الزوجين إذا تم بينهما الانفصال في السنوات الأولى وهناك أولاد بينهما فإنه بحكم الحضانة سيكونون مع أمهم، التي لها تأثير خطير على التكوين النفسي لهم، وللأسف الشديد فإن أكثر من 80 % من الحالات التي أباشرها لأبناء في سنوات المراهقة تكون فيها الأم قد لعبت دوراً مدمراً لنفسية أطفالها بتشويه صورة الأب لديهم، ولهؤلاء أقول: إن الطفل مكون من جزء من أبيه وجزء من أمه وهو نفسياً وجسدياً نبت ونما من أرضهما، وكلاهما يتمتع عنده بمكانة المثل الأعلى، فإذا حاول أحد أن يقنعه بأن أباه مليء بالعيوب، فلابد وأن الطفل سيقتنع أيضاً أنه شخصياً يحمل هذه العيوب والنقائص، لأن الولد مثل والده، هذا ما يعرفه الابن تماماً.

إن الاتهامات التي يقولها كل طرف عن الطرف الآخر بعد انفصالهما لأولاده.. تؤذيهم وتجعلهم يكرهون الحياة نفسها، ويحتقرونها، لأن أسرهم بهذه الصورة، مما يوقعهم في براثن كراهية الطرفين معاً الأب والأم، ويتعذبون لأنهم في الوقت نفسه يحبونها.

والأكثر سوءاً من كل ذلك هو الحالة التي يرتكب فيها أحد الوالدين جريمة حرمان الطرف الآخر من رؤية الابن، والتسبب في أكبر قدر من الآلام له وإذلاله. إن كل طرف يجب أن يترفع عن مثل هذه التصرفات الطائشة إذا كان مقتنعا تماما بالحقيقة الواضحة. وهي أن الابن جزء من أبيه وأمه، وأنه يحتاج إليهما في الوقت نفسه.

إنني أوجه كلمة إلى الأم كاتبة رسالة شهوة الانتقام «بحكم حضانتها للصغير»، إن عليها أن تلعب دوراً حكيماً، وهو ليس دور المظلومة التي تبحث عن العار لتصبه على رأس زوجها السابق أو التي تحاول أن تنال عطف طفلها عليها

وسخطه على أبيه.. وإنما دور الإنسانة المتزنة التي تتفهم الأمور، إنه الدور الذي تتحاشى فيه اتهام الأب بأنه في جوهره وأساسه شخص سيىء، لا ينبض قلبه بالحب، بل يجب أن يعرف الطفل من أمه بأن أباه له صفات تحبب فيه معظم الناس.. وأشد ما يحتاجه هذا الطفل هو أن يسمع أن أباه أحبه، ومازال يحبه، ولكي تصل الأم لذلك، فيجب عليها أن تضع حبها لطفلها فوق كرهها لأبيه وسخطها عليه، إن فكرة الابن عن أبيه هي نفس الفكرة التي يتخذها عن نفسه، وفكرة الطفل عن أمه هي نفس الفكرة التي سينظر بها إلى زوجته في المستقبل، وكذلك فكرة الابنة عن أبيها هي نفس الفكرة التي ستنظر بها إلى الرجال في المستقبل عندما تنضج، وفكرة الابنة عن أمها هي نفس الفكرة التي ستحاول أن تكون عليها زوجة في المستقبل، ولهذا يجب ألا يقف الطلاق بين الأبوين حاجزاً دون تكوين أحاسيس الحب في قلوب الأبناء لآبائهم وأمهاتهم.

أكرر وأؤكد أن مصلحة الابن يجب أن تكون في احترامه لأبويه، وأن ينال حقه الكامل من حبهما، وأن يستعمل كل طرف ذكاءه الكامل لإرضاء الطفل نفسياً، ويتحقق ذلك عندما يستطيع أن يستمتع فعلاً بعطف ومصاحبة الطرف الآخر الذي لا يقيم معه إقامة كاملة.

إن الطفل يعرف تماماً أنه لا شيء في العالم يستطيع أن يعوضه حنان الأب أو حنان الأم، وهذه هي الفكرة الأساسية التي يجب أن يقيس بها الأمور كل زوج منفصل أو زوجة منفصلة، ومؤسسات توجيه الأطفال والعيادات النفسية تؤكد أن الطفل الذي يفقد حب الأب أو الأم يعاني القلق النفسي والتوتر الدائم.

كما أنه يجب ألا نستخدم الأبناء كوسيلة لإلهاب الصراع عن طريق لي ذراع الطرف الآخر، ويجب أن يكون الأبناء بعيدين كل البعد عن الصراعات التي تنشأ بعد الطلاق، إن محاولات أي طرف أن يجذب إليه الأبناء عاطفياً، ويحصل على تأييدهم هي محاولات فاشلة ولا تثير لدى الأبناء إلا الاستخفاف والاستهزاء وربما الاشمئزاز، ولهذا يجب أن نحافظ على التوازن العاطفي لدى فلذات أكبادنا.

وبالرغم مما سبق، فإن كل ذلك لا يعني أن أطفال الأبوين المطلقين لا يستطيعون أن ينموا نموا سليماً آمناً، ولا أن يقيموا حياةً زوجية طيبة عندما يكبرون، فكثيرون منهم يفعلون ويفلحون، ولكن ينبغي أن يكون واضحاً جداً للأب والأم على السواء أن الأمر يتطلب جهداً غير عادي وفطنة وتبصراً وروحاً كريمة قوامها المودة والرحمة والترفع عما حدث لكل منهما، المهم هو أن يتحاشى كل طرف تحطيم صورة الطرف الآخر عند الطفل، فإن فعلا ذلك فإنهما يلقيان بطوق النجاة لأطفالهما ويحميانهم من كثير مما يمكن أن يعانوه، ويستمر معهم حتى آخر حياتهم.

كلمة أخيرة للآباء والأمهات، اتقوا الله في أولادكم فهم الحاضر والمستقبل، وأذكرهم بقول الرسول الكريم عن إحدى خصال المنافق «أنه إذا خاصم فجر» صدق رسول الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

كلما تجدد الحديث عن جناية بعض الآباء والأمهات على أبنائهم باتخاذهم ساحة للصراع غير الشريف فيما بينهم.. وسعى كل طرف منهم لاجتذاب مودة الأبناء إليه وغرس الكراهية في نفوسهم ضد الطرف الآخر.. تذكرت كلمة أطلقها قاض أمريكي قبل أن ينطق بحكمه في جريمة بشعة ارتكبها شاب ضائع فقال إن كل جريمة تبدو للآخرين بلا دوافع مفهومة وراءها غالباً إنسان حُرم في طفولته من الحب وإحساس الأمان في حياته العائلية. ولقد كتب الكثير عن آثار تمزق الأطفال بين الأبوين على معنوياتهم وتكوينهم النفسي ورؤيتهم للحياة.. لكن دراسة حديثة قد كشفت عن أن هذه الآثار لا تقتصر على الجانب المعنوي والنفسي فقط، وإنما قد تمتد أيضاً إلى ماهو أبعد من ذلك. فقالت الدراسة إن تعرض الأطفال للضغط العصبي بسبب الخلافات العائلية المتكررة قد يؤدي إلى انخفاض ملحوظ في إفراز هورمون النمو لديهم وإلى زيادة إفراز هورمونات الضغط العصبي مما يضر بأجزاء من المخ تؤدي دوراً رئيسياً في ذاكرة الطفل وقدرته على التعلم. ذلك لأن هورمون النمو يتم إفرازه خلال النوم العميق، وينخفض معدل الإفراز بسبب اضطرابات النوم التي يعانيها عادة الطفل بسبب التوترات العصبية إثر خلافات الأبوين الحادة.. أو بسبب تمزقه بين حبه لأحد الأبوين وكراهيته للآخر، فضلاً عن أن هذه التوترات تضعف جهاز المناعة في جسمه، وتزيد من احتمالات الإصابة بالأمراض المعدية.

فإذا تذكرنا ما يقوله العلماء من أن التخلف العقلي ليس وراثياً فقط، وأن منه ما يرجع إلى أسباب تتعلق بالبيئة التي ينشأ فيها الطفل.. وأنه إذا نشأ إنسان في بيئة لا تساعد على تنشيط العقل فإن عقله لن ينمو بنفس المعدل الذي ينمو به عقل إنسان آخر نشأ في بيئة سوية، ويضربون لذلك مثلاً بالطفل الرضيع الذي تتولاه الذئاب وترضعه وترعاه فيشب شبه أبكم ولا يكاد يتميز إدراكه عن إدراكها في شيء كثير.. إذا تذكرنا كل ذلك لم نستبعد أن يكون للبيئة العائلية غير السوية التي ينشأ فيها الأطفال بسبب خلافات الأبوين المستمرة أمامهم.. وإشراكهم فيها.. أو استخدامهم كأداة في حروبها.. بعض الأثر الذي تتركه بيئة الذئاب على إدراك الرضيع الذي اختارت له الأقدار أن ينشأ بينها من الناحية العقلية فضلاً عن الآثار النفسية والتربوية والصحية الأخرى، فهل يدرك بعض الآباء والأمهات حقيقة ما يجنون على أبنائهم خلال انشغالهم في معاركهم العلنية أمام هؤلاء الأبناء. وخلال استخدامهم لهم في حربهم غير الشريفة ضد الطرف الآخر قبل الانفصال أو بعده؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الصمت النبيل!

أنا رجل في السابعة والأربعين من عمري.. أقيم في مدينة كبيرة من مدن الأقاليم.. نشأت في أسرة بسيطة متدينة.. وتشربت منها النفور من الحرام في الفعل والقول والإشارة.. وأنهيت تعليمي وعملت بإحدى الهيئات بمدينتي وساهمت مع أبي في إعداد صغرى شقيقاتي للزواج بعد أن ضعفت موارده في شيخوخته، وشعرت بالرضا عن نفسي لإعانتي لأبي في تلك المشكلة التي أقضت مضجعه. و نعمت برضاه ودعواته الصالحة لي ودعوات شقيقتي الصغرى لي بالستر في الدنيا والآخرة كما سترتها أمام أسرة زوجها.. **ودعوات أمي الطيبة كذلك، وبسبب استدانتي لمساعدة شقيقتي ظللت 4 سنوات بعد عملي أعيش في تقشف شديد وأحرم نفسي مما يستمتع به الشباب في مثل سني لكي أسدد أقساط الديون والجمعيات ولم أندم يوماً على ذلك.. بل إنني كثيراً ما شعرت بالاعتزاز وأمي تقول لي إنني ولدت رجلاً من البداية.. وتصرفت دائماً تصرف الرجال حتى وأنا طفل صغير.. ولسوف أظل دائماً رجل البيت إلى النهاية.. ورحل أبي عن الحياة بعد عملي بخمس سنوات داعياً لي بالستر والصحة وطول العمر.. واحتضنت أمي بعد رحيله وخففت عنها أحزانها ووحدتها وأصبحت أباً لشقيقاتي المتزوجات حتى لمن يكبرنني منهن في السن.. وحرصت على أن يظل بيت أبي مفتوحاً لهن يجدن فيه راحتهن.. ويجتمعن مع أبنائهن في الأجازات والأعياد، ونستمتع بالجو العائلي والحب الصادق الذي يجمع بيننا، وفي هذه الجلسات العائلية واصلت شقيقاتي وأمي إلحاحهن عليّ بالزواج وراحت كل منهن ترشح لي فتاة تراها مناسبة لي، إلى أن استقر الاختيار على فتاة شهد لها الجميع بالأخلاق والالتزام الديني والاحترام، ورفضت أن أتزوج في مسكن أمي لكي يظل بيتها مفتوحاً لشقيقاتي، ونجحت في الحصول على شقة بالإيجار قريبة من بيت الأسرة، وبدأت حياتي الزوجية مع زوجتي وكانت أول امرأة في حياتي فأحببتها بإخلاص وحرصت على إسعادها وراحتها.. وأصبح يومي يبدأ في الصباح المبكر بتناول الإفطار مع زوجتي ثم نخرج معاً فتذهب هي إلى عملها.. وأذهب أنا إلى بيت أمي القريب لأحظى برؤية وجهها السمح.. وأفتتح يومي بدعائها الصالح لي، فأجدها جالسة على «الكنبة» القديمة في صالة الشقة وقد نهضت من نومها في الفجر، واغتسلت وأدت صلاتها الطويلة وتلت أدعيتها المحفوظة لأبنائها ودعت لزوجها وأبويها بالرحمة والمغفرة وتناولت كسرة من الخبز مع بعض الجبن.. وانتظرت قدومي لأشرب معها القهوة فما أن أفتح الباب بالمفتاح الذي أحتفظ به حتى تتهلل لرؤيتي وتستقبلني بابتسامة الترحيب وتشعل موقد الكحول تحت «كنكة» القهوة المعدة سلفاً.**

وأجلس إلى جانبها.. وأسألها عن صحتها وأحوالها وأستمتع بشرب القهوة والحديث معها لمدة نصف الساعة ثم أقبل جبينها ويدها وأنصرف إلى عملي وأنا مفعم بإحساس التفاؤل والابتهاج.

وهكذا كل يوم طوال الأعوام الماضية.. لم يغير من عادتي إلا بعض الظروف الطارئة كإنجاب زوجتي لطفلتنا الأولى ثم الثانية.. أو سفري إلى خارج المدينة في عمل.

وأما زوجتي فقد أحبت أمي وشقيقاتي كما أحبهن.. وغبطتني على علاقة الحب الصادق التي تجمع بيننا.. وأسفت كثيراً لأنها لم تستمتع بمثل هذه العلاقة العائلية الدافئة.. حيث ساد التباعد والفتور علاقات إخوتها ببعضهم البعض وعلاقاتهم بأبويهم. ومضت بنا الأيام وأنا سعيد بحياتي وزوجتي وأسرتي وتقدمت الابنتان في مراحل العمر والدراسة.. ولم تشهد علاقتي بزوجتى أية مشاكل حقيقية.. ولم يتجاوز أي خلاف عابر بيني وبينها حدود الخلافات العادية التي تحدث بين الأزواج والزوجات، وسرعان ما تجد حلها خلال ساعات أو أيام على الأكثر، وكثيراً ما كنت أنا البادئ بالصلح حتى ولو لم أكن مخطئاً لحبي لها ولكرهي للجفاء والخصام بصفة عامة.. وفي كل مناسبة أشيد بزوجتي ورعايتها لابنتيها ولي، وفي كل حين تشيد هي بي، وبحسن معاملتي لها وحناني معها وحرصي على بيتي وبنتي، وتفسر ذلك بنشأتي في بيت متراحم متحاب على عكس نشأتها هي في بيت تسوده الخلافات الحادة بين الأبوين.

وتحسنت أحوالنا المادية إلى حد كبير خلال رحلة العمر.. فازداد دخلي وارتفع مرتبها وبدأنا ندخر القليل لمواجهة نفقات بنتينا الطارئة ومدارسهما وزواجهما في المستقبل.. وأصبحت حياتنا أنشودة من الحب والتعاون والتفاهم الزوجي.. وظل الحال على هذا النحو حتى بدأت الاحظ على زوجتي منذ حوالي عام بعض التغيرات في شخصيتها وتصرفاتها.. وكانت البداية أن لاحظت اهتمامها الزائد بنفسها.. كما لاحظت أيضاً أنها قد بدأت تتخفف من بعض احتشامها المعتاد كما بدأت تضع الماكياج الخفيف عند خروجها ولم تكن تستعمله من قبل إلا في البيت.. وأخيراً بدأت الاحظ جفاءها العاطفي معي وتهربها مني وسرحانها الطويل والتزامها الصمت معظم فترات وجودها بالبيت.. وفي جلستي الصباحية مع أمي شكوت لها من تغير أحوال زوجتى معي فخففت عني ونصحتني بزيادة الاهتمام بها وتخصيص وقت أكبر لها.. وفعلت ما نصحتني به.. ولم يتغير الحال إلا قليلاً وعلمت أن أمي قد استدعتها ونصحتها بالاهتمام بي ووعدتها زوجتي خيراً.

وكان قد لفت نظري كذلك أنها قد أصبحت تذهب إلى العمل مبكرة عن موعده الطبيعي بحوالي الساعة ولم تعد تنتظرني لكي نخرج معاً كما كنا نفعل من قبل، فقررت ولا أدري لماذا أن أراقبها ذات يوم لأعرف إلى أين تذهب في هذا الوقت المبكر وتتبعتها عن بعد فوجدتها تتجه إلى عملها.. ولم تكن الساعة قد قاربت السابعة صباحاً، وتبعتها إلى العمل فوجدت بابه مفتوحاً ودخلت الإدارة التي تعمل بها فلم أجد أحداً. وفتحت مكتب مدير الإدارة لعلي أجد الساعي يقوم بتنظيفه وأسأله عن زوجتى فإذا بي أراها مع مدير الإدارة في موقف غرامي يتبادلان فيه فيما يبدو تحية الصباح بالقبلات!

ولا أدري كم لحظة مرت عليّ وأنا ذاهل عن كل ما حولي.. ولأنني استوعبت ما حدث انقضضت عليهما وهما يرجوانني ألا أسيء فهم ما رأيت، ولولا أن تمالكت

نفسي بعض الشيء لحدث مالا تحمد عقباه ثم دفعت الخائنة أمامي وغادرت الإدارة ولم يكن قد أتي أحد أو شهد ما شهدته..

وفي البيت أجلستها أمامي وسألتها سؤالاً واحدا هو: لماذا؟ ماذا فعلت لك لكي تفعلي بي ذلك.. فيم أسأت إليك لكي تطعنيني هذه الطعنة القاتلة؟. لقد عاملتك بالحسنى طوال زواجنا.. ولم أقصر في حقك يوماً ما ولم أخنك.. ولم أر في الدنيا كلها امرأة سواك.. فلماذا؟ ولماذا لم تطلبي مني الطلاق إذا كنت لا تحبينني ولا ترغبين في مواصلة الحياة معي؟

ولم تجد ما تقوله سوى أنها مرت بحالة ضعف استغلها مديرها.. واقترب منها فيها فضعفت أمامه، وأنها كانت تأمل أن تقاوم هذا الضعف وتسترد نفسها وترجع لسابق مسيرتها معي ..

واتصلت بوالدتها ودعوتها للحضور وواجهتها أمامها وألقيت عليها يمين الطلاق وطلبت منها أن تصطحبها إلى بيتها وتركت لها الفرصة لجمع ملابسها، وحمدت الله أن الابنتين كانتا في مدرستيهما فلم تشهدا هذا الموقف المخزي.. ورجعت الابنتان من المدرسة فوجدتاني مريضاً في الفراش وحرارتي مرتفعة والعرق يتفصد مني وسألتا عن أمهما فأجبتهما بأنها فاجأتها نوبة مرض عصبية ونفسية وتستريح لبعض الوقت في بيت أسرتها وأنهما سوف تذهبان لزيارتها كل يوم جمعة إلى أن تشفى.

وانقلبت حياتي رأساً على عقب بعد هذا اليوم.. وظللت مريضاً سقيماً لا أقوى على مغادرة البيت ثلاثة أيام، ولاحظت أمي شرودي وحزني حين زرتها بعد ذلك وسألتني مراراً عما ألمّ بي فلم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة وبعد إلحاح منها ومن شقيقاتي صارحتهن بأنني قد طلقت زوجتي بسبب تغيرها معي وجفائها لي ولم أزد على ذلك كلمة أخرى، وبعد ذلك بأيام كررت عليّ أمي السؤال عن سبب الطلاق فغلبتني دموعي أمامها وأجبتها بعد أن تمالكت نفسي بعض الشيء.. لأنني «رجل» يا أمي.. كما كنت تقولين دائماً عني وأريد أن أظل كذلك إلى آخر عمري. ففهمت بغير كلام وبكت طويلاً وقبلتني في جبيني ودعت لي كثيراً بأن يخفف الله عني همي .. وكفت عن الإشارة لهذا الأمر بعد ذلك نهائياً وإن كان الإشفاق يطل دائماً من عينيها كلما رأتني.

والآن ياسيدي فلقد مضت بضعة شهور على هذا الزلزال الذي هدم أسرتي وهز كياني كله.. وقد لاحظ على الجميع حزني واكتئابي وهزال جسمي.

ولقد عرفت الابنتان من أمهما وليس مني أنني قد طلقتها، وتسألانني عن السبب فألوذ كل مرة بالصمت العاجز.. أو أقول لهما إن حياتنا معا قد انتهت عند هذا الحد فلا تقتنعان، وتطالبانني بإقناعهما بسبب مقبول للطلاق خاصة أنهما طالبتان وقادرتان على تفهم هذه الأمور.

وأنا عاجز عن البوح لهما بالسبب الحقيقي للطلاق.. ولا أريد لهما في نفس الوقت أن تظلمانني وتظنان بي القسوة على أمهما أو أنني ظلمتها وظلمتهما معها.. ولا

أريد في نفس الوقت أن أشوه صورة أمهما في مخيلتهما وهما فتاتان في مطلع سن الشباب.. كما أنني لا أجد في نفسي أي استعداد للصفح عن أمهما أو استئناف الحياة معها في يوم من الأيام بعد أن طعنت قلبي وشرفي وكرامتي.. وبعد ما سمعته منها من اعترافاتها المؤسفة خلال المواجهة.

وأنا حائر حزين ويملؤني الإحساس بالخذلان وأتساءل عما جنيته في حياتي لكي أواجه مثل هذا الغدر الخسيس وأنا الذي مات أبي راضياً عني وداعياً لي بالستر والسعادة في الدنيا وكنت ومازلت باراً بأمي وشقيقاتي وتدعو لي أمي كل يوم دعاءها الصالح.. فلماذا انكشف عني غطاء الستر.. وتجرعت هذه الكأس المرة ياسيدي؟.

إنني أريد أن أتخطى هذه المحنة وأواصل حياتي وأؤدي رسالتي مع ابنتي، فماذا أفعل معهما وهل أستجيب لضغطهما عليّ لكي أصارحهما بسبب الطلاق الحقيقي.. وهل يمكن أن أبدأ حياة جيدة حقا بعد هذا الزلزال الذي هدَّ كياني؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من نكد الدنيا أن يكون الإنسان ضحية لغيره ثم يجد بين أقرب الناس إليه من يظنون به القسوة على من جني عليه، أو أن يساء إليه أبلغ الإساءة فلا يقدر على التصريح بحقيقة ما تعرض له من أذى ويحاسبه الآخرون على رد فعله لما يتكتمه هو في صدره حرجاً منه أو رعاية لاعتبارات تربوية وإنسانية أهم لديه من اعتباراته الشخصية، وفي كل هذه الأحوال فلسوف يعقل المرء لسانه عن البوح بما يكابده لأنه إن لم يفعل ذلك أذى مشاعره الشخصية قبل أن يؤذي الآخرين وأساء إلى نفسه وأعزائه قبل أن يسيء لمن أخطأ في حقه.. فكأنما يكابد ذلك الظلم المضاعف الذي أشار إليه الشاعر العربي في قوله:

ولم أر ظلما مثل ظلم ينالنا

يُساء إلينا ثم نؤمر بالشكر

أو بالصمت وكلاهما مر، لكنه لا حيلة لأصحاب النفوس الكبيرة سوى تجرع الصمت في مثل هذه الظروف الشائكة ولا مفر أمامهم من الاعتصام به حفظاً للحرمات ورعاية للمشاعر وحرصاً على معنويات الأبناء ومثالياتهم. فواصل التزامك بهذا الصمت النبيل مع ابنتيك ياصديقي وقل لهما إن من الأسباب المشروعة للطلاق بالرغم من كراهته استحالة العشرة بين الزوجين فإذا تعذر الإصلاح وفشلت كل الجهود ولم يعد في طاقة أحدهما أو كليهما مواصلة احتمال الحياة مع الطرف الآخر فلهما أن يتفرقا بلا ضغينة وبغير أن ينقص ذلك مِن كفاءة أحدهما أو حرصه على أبنائه مصداقاً لقوله تعالى (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلا مِنْ سَعَتِهِ).

ولقد استحالت العشرة بينك وبين أمهما ورأيتما بعد طول مجاهدة أن يستقل كل منكما بحياته عن الآخر.. ويواصل رعايته لكما بغير أن يسيء للطرف الآخر أو يذكره بسوء لديكما. والأيام كفيلة بعد ذلك بمداواة الجراح وتفهم الأبناء لبعض حقائق الحياة القاسية بغير أن يهتز رمز الأب أو الأم في مخيلتهما.

فأما الستر الذي تتساءل في غمار همك بأمرك ورثائك لنفسك، لماذا انكشف عنك وأنت الابن البار لأبويه والأخ العطوف لشقيقاته.. والزوج المخلص لزوجته فإن تساؤلك المؤلم له ما يبرره بالفعل وأنت الذي التزمت بمثالياتك الأخلاقية والدينية في الحياة وتوقعت أن تجزيك عنها الأيام بالسعادة والأمان.. لكن كل إنسان في الوجود معرض للإساءة من الآخرين ولو كان من الصالحين.. ولقد تعرض الأنبياء جميعهم للأذى من أقوامهم وهم دعاة الحق وهداة البشرية إلى الخير والصلاح.

والخطيئة في النهاية هي عار المخطئ وليست عار ضحيتها.

وليس يعيب الإنسان أن يغدر به الآخرون أو يتنكروا له أو يخذلوه وإنما يعيبه أن يقبل الخنا على نفسه أو يتغاضي عنه طلباً للسلامة.. فارفع رأسك ولا تشعر بالانكسار والهوان لأن من أخلصت لها العشرة والود لم تحفظ لك الود ولم تبادلك إخلاصاً بإخلاص.

وثق في أن تجربتك معها لم تذهب سدى في النهاية فمن عرف من لا يصلحون له فلقد عرف بالتالي الصالح المنشود.. وليس يصمد لاختبارات الحياة القاسية بغير أن ينهار أمامها سوى أصحاب النفوس الكبيرة مثلك. والمثل البوذي القديم يقول لنا إن العظمة الحقيقية هي في القدرة على احتمال المكاره.

ولو راجعت ما جرى لك في محنتك لأدركت أن غطاء الستر لم ينكشف عنك في واقع الأمر على عكس ما يبدو لك، فلقد اكتشفت ما تعرضت له من غدر في بدايته وقبل أن تفوح رائحته وتزكم الأنوف وتسيء إلى كرامتك واعتبارك، كما تأكدت من ظنونك بغير أن تنفجر حولك فضيحة مدوية تشعرك بالانكسار أمام شهودها.. ووقعت الواقعة المؤلمة في أضيق حدود العلانية ولم يشهدها سواك ولم يعرف بحقيقة الأمر سوى والدة زوجتك السابقة حين صرحت أنت لها بها، ولعل ذلك يخفف من الخسائر النفسية والمعنوية، ويؤكد لك أن دعاء أبويك لك ومثالياتك الأخلاقية والدينية وتعاملك الأمين مع الحياة لم يذهب هباء.. والإنسان قادر دائماً على أن يبدأ حياة جديدة في أية مرحلة من العمر، وأكثر الناس استحقاقاً للسعادة هم الذين اختبرتهم الحياة بالشقاء واستوفوا كأسهم المرة منه.

وسن السابعة والأربعين مناسبة تماما لبدء حياة جديدة لك إذا رغبت في الزواج من جديد بشرط اختيار الزوجة الملائمة لك في العمر والظروف العائلية والاجتماعية.. وتقبل ابنتيك مع الأيام للفكرة.. وتشجيعهما لك عليها.. وما أظن إلا أنهما سوف تشفقان عليك من وحدتك وتقبلان بها بعد حين.. والشاعر الألماني شيللر يقول لنا إنه: «حين يسقط البناء ويتغير الزمن تظهر حياة جديدة من بين الحطام».

فلعل ما تستشعر مرارته الآن يكون بشيرا لك بحياة جديدة تزهر ورودها من بين حطام التعاسة السابقة، ولعل الله سبحانه وتعالى يعوضك عمن لم تحرص عليك ولم ترع لك حرماتك بمن هي خير منها.

ولا شك في أن حرصك على ألا تسيء إلى أم ابنتيك بالرغم من إساءتها لك وترفعك عن التشهير بها لدى ابنتيها والآخرين سيكون شفيعاً لك لدى السماء لكي تمسح عنك أحزانك وترشحك للسعادة الحقيقية في قادم الأيام بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دورة الأيام!

أنا رجل أبلغ من العمر 56 عاماً وأعمل منذ فترة طويلة بإحدى الدول العربية ولي ابن وابنة انتهيا والحمد الله من دراستيهما الجامعية ويعملان معي الآن في نفس البلد الذي أعمل به.

وقد مضت رحلة حياتي دون تحولات عنيفة أو منغصات كبيرة.. غير أنني أواجه الآن موقفاً يثير تأملاتي.. ويدفعني لأن أستشيرك بشأنه. فمنذ ثلاثين عاماً ارتبطت عاطفياً بفتاة أحببتها للغاية ورغبت بشدة في أن أتزوجها، إلا أنها كانت تكبرني بأربع سنوات، ووقف هذا الفارق عائقاً صلباً دون موافقة أهلي على زواجي منها، وحاولت بشتى الطرق إقناعهم بها، إلا أنهم أصروا على موقفهم للنهاية، ولأنني بار بأبي وأمي، فلقد استجبت لهما على غير رغبتي وصارحت الفتاة بالحقيقة ونصحتها بأن تبحث عن مستقبلها وألا تنتظرني، وانقطعت عن رؤيتها بعد ذلك، لكنني لم أنسها، ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد تزوجت وشغلت بحياتها الجديدة.

أما أنا فقد رشح لي أبي وأمي عروساً مناسبة، وسرعان ما تزوجتها واصطحبتها معي إلى الدولة العربية التي عملت بها.. وكلما رجعت إلى مصر في إجازة تذكرت فتاتي الأولى واستفسرت عن طريق الأصدقاء عن أخبارها..

ومضت حياتي هادئة وبلا منغصات، والحق أنني قد وجدت في زوجتي سيدة فاضلة تبذل كل ما في وسعها لإسعادي كما أنها صانتني وحمتني من مغريات الشباب، ونشأت أبناءنا على الخلق الحميد والحمد لله على ذلك كثيراً، لكن الحياة مضت بي بالرغم من ذلك دون أن أشعر بحرارة الحب التي كنت أستشعرها مع فتاتي الأولى.

أما الموقف الذي أواجهه الآن ويثير تأملاتي فهو أن ابني يحب إحدى زميلات أخته في العمل حباً كبيراً ويرغب في الزواج منها.. وأنا ووالدته نعارضه في هذا الارتباط لغير شيء سوى لأنها تكبره بخمس سنوات!.. وهو يصر على الزواج منها ويحاول إقناعنا بها بشتى الطرق.. ووالدته ترفض بشدة وأنا أشاركها الرفض بدافع من خوفي عليه كأب في بعض الأحيان.. وأتذكر موقفي من أبي وأمي حين رفضا زواجي ممن أردتها لنفس السبب في أحيان أخرى. فيرق قلبي له وأتمنى لو أحقق له أمنيته لكيلا يحرم ممن يحبها.

وقد زاد من حيرتي أن تقدم لابنتي شاب يصغرها بثلاث سنوات.. وابنتي توافق عليه وترحب به، وزوجتي ترفضه بشدة كما ترفض فتاة ابنها التي تكبره.

وأنا بالرغم من عدم موافقتي على اختيار ابني ولا على من تقبل به ابنتي وليس فيهما أية عيوب جوهرية سوى فارق السن، فقد حاولت إقناع زوجتي بقبولهما.. لكنها ترفض رفضاً تاماً.. ونحن في غربة والشباب المصري المقيم هنا يرجعون إلى بلدهم في الأجازات فيتزوجون من أقاربهم ومعارفهم فيها، ونحن لا نرجع إلى

بلدنا إلا لمدة شهر واحد كل عام، وبسبب طول الاغتراب فإن صلتنا بالأقارب والمعارف في مصر محدودة، وأخاف على أبنائي من ضياع الفرص المناسبة.. ومن غربتهم في بيتهم، حيث أن كلاً منهما الآن يسكن حجرته ولا يكلم أحداً، كما يثير شجوني أن ما حدث لي في الماضي وشكوت منه يتكرر الآن بنفس تفاصيله مع أبنائي، فما رأيك في ذلك وبماذا تشير علي؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

دورة الأيام قد ترينا من أمرنا عجباً! والحق أن مشكلة تفاوت السن بين شريكي الحياة ينبغي أن تكون دائماً في حدود الأمان.. أي في الحدود التي تسمح لهما بتقارب الاهتمامات والميول والمزاج النفسي بشكل عام.. فإذا كان المبدأ العام هو تفضيل أن يكبر الفتى الفتاة التي يرتبط بها ببضعة أعوام للاعتبارات المعروفة، فليس مما يخرج أيضا عن حدود الأمان في بعض الحالات الاستثنائية أن تماثل الفتاة فتاها في السن أو أن تكبره بسنوات قليلة.. والاستثناء دائماً خروج عن القاعدة لابد أن يكون له ما يبرره، لأن قوانين الحياة الطبيعية هي الأولى بالاتباع في الظروف العادية، وأقوى دوافع الاستثناء من القاعدة في أمور الزواج هو الارتباط العاطفي القاهر الذي يعوض أو يبرر عدم الالتزام ببعض بنود القاعدة العامة لدى أصحابه.

وإذا كان هذا الاختيار العاطفي القوي لايتعارض مع أحكام العقل في النواحي الأخرى، كاعتبارات الكفاءة العائلية والاجتماعية والسمات الأخلاقية والنفسية والعقلية، فلقد يجوز التغاضي عن فارق السن لغير صالح الفتاة في بعض الحالات، كما يجيز بعض الفقهاء إمامة المفضول مع وجود الأفضل أحياناً! والأفضل دائماً هو أن يكبر الفتى فتاته ببضع سنوات ليكون قادراً على الإمساك بدفة القيادة في أسرته الصغيرة بالمشاورة والتعاون مع شريكته. والمهم في كل الأحوال هو أن يعي كل طرف في العلاقة الزوجية حقيقة دوره ويكون قادراً على النهوض به بغير التنازل عنه للطرف الآخر وبغير تطلع طرف لأداء دور ليس مؤهلاً بحكم الطبيعة وقوانين الأشياء للقيام به نيابة عن شريكه.

ومقاومة الأهل للاختيار العاطفي للأبناء إذا لم يتعارض هذا الاختيار مع أحكام العقل بشكل صارخ، كثيراً ما يدفع الأبناء للتمسك به ويستثير لديهم الميل للتحدي لإثبات سلامة اختيارهم حتى ولو دفعهم ذلك أحياناً إلى التغاضي عن بعض المحاذير والعيوب. في حين قد يساعدهم تحرز الأهل في رفض اختياراتهم، ومبادرتهم بعدم اتخاذ موقف قاطع بالرفض لها، واعتبار الأمر قابلاً للمناقشة والتفكير فيه، على ممارستهم هم أنفسهم للتفكير النقدي لهذه الاختيارات.. والتفكير النقدي هو التفكير الذي يتسم بالموضوعية ولا يقبل الأشياء قبولاً مطلقا، ولا يرفضها أيضاً رفضاً مطلقاً، وإنما يرى فيها المزايا والعيوب ويوازن بينها ويتخذ صاحبه قراره على أساس ترجيح كفة هذا على ذاك.. وفترة الخطبة في

الأصل هي فترة اختبار للمشاعر وتوافق الميول والرؤى لدى الخطيبين.. ولا بأس بأن «يختبر» ابنك صدق مشاعره وعمق توافق ميوله مع ميول فتاته خلال فترة ملائمة للخطبة قد تسمح له بتقدير الأمور تقديراً أكثر موضوعية منه وهو واقع تحت ضغط الرفض المطلق لاختياره من جانب أبويه، وما يثيره لديه ذلك من تحد قد يغمض العين معه عما في وجهة نظرهما من استشراف للمستقبل وحرص على مصالحه.. فإذا جاءت نتيجة الاختبار لصالح فتاته فلا شيء يمنع استكمال المشوار معها، وتسليم الأهل له برغبته، لأن هدفهم في البداية والنهاية هو سعادته وصلاح أمره، وإذا لم تجيء النتيجة لصالحها كان قراره نابعاً من تجربته وليس مفروضاً عليه بالقهر من أبويه، فلا يندم على فوات الفرصة ولا يأسى عليها.

ونفس المنطق يمكن التعامل به مع ابنتك بغير قهر لإرادتها، فماذا يمنعك أنت وزوجتك ياسيدي من منح ابنك وابنتك حق التجربة المشروعة في الإطار العائلي مادام اختيارهما لا يعيبه شيء جوهري - كما تقول - سوى فارق السن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرات القاتلة!

أكتب إليك قصتي لعلها تفيد غيري، وتجنبهم العثرات، فأنا رجل في الثالثة والأربعين من العمر.. ارتبطت خلال دراستي بالجامعة بزميلة لي، وعشت معها قصة حب عميقة، وتعاهدنا على الزواج بمجرد التخرج.. وتخرجت وخطبتها وأديت الخدمة العسكرية.. ولا شيء يشغل تفكيري سوى فتاتي، ثم تزوجنا وبدأنا حياتنا معاً، وعشنا قصة سعادة رائعة.. وأنجبنا طفلين جميلين، اكتملت بهما أنشودة الحب القديم ومارست إلى جانب عملي بالوظيفة.. عملاً حراً ليساعدني على تدبير احتياجات أسرتي الصغيرة. في حين فضلت زوجتي الحصول على إجازة بدون مرتب لرعاية أطفالنا وبيتي. ونجح عملي الحر وتوسعت فيه حتى جاءت اللحظة التي ينبغي لي الاختيار فيها بين التفرغ له أو التمزق بينه وبين الوظيفة، فاخترت الاستقالة والتفرغ لعملي.. وشجعتني زوجتي على هذا القرار.

وأثبتت الأيام بعد نظري ونظر زوجتي في هذا القرار. فلقد - ازدهر عملي وحقق نتائج ممتازة، وعمل معي فيه صديق قديم متزوج، فازداد تقاربنا العائلي.. وأصبحنا نحن الأربعة كأسرة واحدة، نلتقي كثيراً ونتبادل الزيارات العائلية ونقضي كل أوقات فراغنا معاً، فبدأ التقارب بيني وبين زوجة صديقي يزداد بلا احتراس، وكانت البداية مكالمة تليفونية بيني وبينها ليتني لم أتحدثها ثم تعددت المكالمات، وبدأنا نستشعر خطورة الطريق الذي ننزلق إليه وأثره على حياة كل منا العائلية، فحاولت زوجة صديقي التوقف والابتعاد.. ولم أحاول أنا ذلك للأسف بالرغم من إدراكي للهوة التي أسير إليها .. فاستمرت المكالمات والاتصالات وتبادل النظرات الخفية خلال اللقاءات العائلية، وتمزقت بين مشاعري تجاه زوجتي التي مازلت أحمل لها الحب القديم، وبين رغبتي في تلك السيدة.. وتمزقت بين ضعفي الذي يغريني في الاستمرار في اللعبة القذرة، وبين إحساسي القاتل بأنني خائن لزوجتي ولصديقي ونذل شديد النذالة.. واضطربت أعصابي وأحوالي النفسية، وقل تركيزي في عملي، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ التوفيق يتخلى عني في العمل.. وواجهت سوء حظ غريب في أكثر من عملية كان مقدراً لها النجاح مائة في المائة فباءت بالخسارة وأخفيت عن زوجتي اضطراب أحوال العمل إشفاقا عليها.

وحاولت قدر جهدي أن أتخفى عنها «بنذالتي» الشخصية معها ومع صديقي، لكنها أحست بقلب المرأة أن هناك شيئاً غير طبيعي في حياتي، ولم تفاتحني في ذلك.. ولم تحاول استجوابي أو أن تشكو لأحد من أهلها أو أهلي إلى أن تأكدت من ظنونها وعرفت بالقصة كلها.. فآثرت ألا تفضحني وألا تثير الزوابع حولي.. وإنما عبرت عن موقفها مما يجري بالنظرات القاتلة التي تجمع بين الازدراء.. والأسف والكبرياء. واكتفت بإبداء الجفاء المهذب تجاه تلك السيدة وإشعارها بأنها لم تعد صديقة لها كما كانت من قبل.. وإنما أصبحت غير مرغوبة من جانبها في بيتنا أو حياتنا، والتقطت الأخرى الإشارة فانزوت وابتعدت عنها وعني وكفت عن الاتصال بي أو الرد على اتصالاتي.

ثم علمت زوجتي باضطراب أحوال العمل.. ومانتج عنه من خسائر، فشعرت أكثر بأنني غير أمين عليها ولا على مستقبل أبنائنا.. وازدادت الفجوة بيننا.. وشعرت أنا بالانكسار أمامها، وأصبحت لا أقوى على النظر في عينيها، إنني أحاول الآن إنقاذ ما يمكن إنقاذه من عملي.. ولن يكون ذلك مستحيلاً بالصبر والكفاح، لكن المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أحيا مع زوجتي للنهاية وأنا منكس الرأس شاعراً بالانكسار والذلة أمامها.

فبماذا تنصحني أن أفعل.. هل أطلقها لكي تعيش حياتها كما تشاء. وتتفرغ لرعاية الأبناء.. أم هل أسعى للعمل في الخارج لفترة طويلة أغيب خلالها عنها إلى أن تنسى ما حدث وتكف عن توجيه نظراتها القاتلة إليّ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لست في حاجة إلى طلاق زوجتك مادامت لم ترغب فيه، ولم تطالبك به.. ولا إلى هجرها والسفر لفترة طويلة بدعوى أن تنسى هي خلالها ما كان من أمرك، وإنما أنت في حاجة فقط لأن تعترف لنفسك أولا بفداحة الجرم الذي ارتكبته في حقها.. وفي حق صديقك وفي حق مثاليات الحياة والأخلاقيات السليمة.. وأن تستشعر الندم الصادق عليه.. ويصح عزمك على التطهر منه والتكفير عنه.

وحين تفعل ذلك.. وتلتزم الطريق القويم في حياتك.. وتستشعر زوجتك جديتك.. فلسوف تجد أنت القدرة على النظر في عينيها دون أن تحتاج لأن تنكس رأسك أمامها، ولسوف تستعيد زوجتك ثقتها فيك واحترامها لك وإحساس الأمان معك.. وتسلم بما يسلم به أصحاب القلوب الحكيمة من أنه لا يلام المرء على أمر قد تاب عنه وندم عليه.. ولم يرجع إليه مرة أخرى، أما قبل ذلك فإن نظراتها القاتلة هذه هي عقابها لك على جريمتك المضاعفة في حقها. وهي مضاعفة لأنك لم تكتف بخيانة عهدك معها بالإخلاص لها حتى نهاية العمر.. وإنما نكبتها في إخلاصك لها وإخلاص الصديقة السابقة كذلك لها.. ثم في مثالياتك وأخلاقياتك التي سمحت لك بخيانة صديقك والعبث مع زوجته.

ومالا يدركه بعض الرجال هو أن طعنة الرجل لزوجته بخيانتها مع أخرى إنما تتضاعف فجيعتها بها حين تكون هذه الخيانة مع من كانت تتوسم فيها الصداقة والإخلاص لها.. أو كانت من أقرب الناس إليها.. إذ تشعر المرأة في هذه الحالة وكأنها قد فجعت في إخلاص طرفين توسمت في كل منهما الحب والإخلاص لها.. وليس في طرف واحد هو زوجها.. وتستشعر الرثاء مضاعفاً لنفسها ولأن أملها في زوجها كان أكبر من الأمل في غيره.. فإنها تحمله عادة المسؤولية الكاملة عن الخيانتين اللتين تعرضت لهما في آن واحد.. وتود لو كان قد أعفاها على الأقل من مضاعفة غدره لها بغدر أقرب الصديقات إليها.. ناهيك عما في خيانتك لها مع

زوجة أقرب الأصدقاء إليك من دلالات كريهة على مستوى قيمك الأخلاقية والدينية، مما لا تسعد به أية زوجة أو ترضى عنه.

ولأن لكل جريمة عقاباً فقد اختارت زوجتك أن تعاقبك على خيانتك لها وفجيعتها في مثالياتك الأخلاقية.. عقاباً معنوياً قد يراه البعض هيناً.. ويراه ذوو الألباب أشد وطأة من الناحية المعنوية من غيره. ذلك أنه يعكس إحساسها بسقوط اعتبار زوجها لديها بغير كلام ولا عواصف مزلزلة. ومع ذلك فإنني معجب بنبل تصرفها معك بعد اكتشافها لأمرك وترفعها عن إثارة الفضائح الشخصية حولك.. وتسترها عليك بدلاً من الإساءة إليك، وإسقاط اعتبارك في نفوس من هم حولك.. فإذا كنت تشعر بالانكسار أمامها فلأن الإنسان لا ينال الاحترام من الآخرين بالضغط أو الإكراه.. ولا بالاستجداء، وإنما ينبع الإحساس بالاحترام ذاتياً تجاه الآخرين حين يلمس المرء التزامهم بالطريق القويم في الحياة، وتصرفهم في حياتهم تصرفات تعكس اتزانهم النفسي والخلقي والتزامهم باحترام النفس وحقوق الغير.. والطريق الخاطئ متاح دائماً للجميع، وهو الطريق السهل الذي لا يرد فيه المرء نفسه عن إغراء أو مصلحة عابرة أو متعة ولو كانت محرمة حتى ولو تعارضت مع حقوق الآخرين، أما الطريق الصعب فهو الطريق الذي يجاهد الإنسان فيه نفسه ويردها عن رغائبها غير المشروعة.. ويكون جزاؤه عن جهاده فيه هو الرضا عن النفس واحترام الآخرين للمرء.. والمضي في الحياة بغير مكابدة الإحساس المرير بالذنب والخوف من عقاب السماء وغدر الأيام، وليس من حق من يختار الطريق السهل أن يأسف على سقوط اعتباره لدى الآخرين، ولا أن يلومهم على ذلك، وإنما من واجبه أن يلوم نفسه على أن وضعها موضع اللوم والازدراء من الآخرين، وأن يجاهد بإخلاص ليردها عن كل ما يسيء إليها، فيكتسب تلقائياً ثقة الغير واحترامهم.

وأنت تستطيع أن تفعل كل ذلك بغير كلام.. وتستطيع أن تعبر لزوجتك بالتصرفات والأفعال عن ندمك على ما سبق منك في حقها.. وسعيك بجدية لإصلاح أحوال العمل والتفرغ له.. وصبرك عليها إلى أن تأسو جراحها.. وتصفح عما كان من أمرك.. فتختفي نظراتها القاتلة تدريجيا وتحل محلها نظرة «الصفح الجميل» الذي قال إمام المتقين علي بن أبي طالب في تفسيره «إنه الرضا بغير عتاب»، فترفع أنت رأسك في مواجهتها.. وتسقط هذه الصفحة الكريهة إلى الأبد من ذاكرتها وذاكرتك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النظرة الجديدة!

أنا فتاة في التاسعة عشرة من عمري لي من الأخوة أخ وأخت يكبرانني، وأخت تصغرني، وقد رحلت أمي عن الحياة وأنا طفلة في الخامسة من عمري وكانت وفاتها مفاجئة ولم يمهلها العمر لكي ترعى أبناءها الأربعة، أو لكي أرتوي من عطفها وحنانها.. فلم تبق لي منها سوى ذكريات غائمة غير محددة، فأتذكرها مثلاً حين كانت تغني لي أو حين كانت ترجع من العمل كل يوم ومعها بعض البسكويت والحلوى لي ولإخوتي، أو حين كانت تنصحني بألا أنام أبداً على بطني أو على جنبي الأيسر وبأن أنام دائماً على ظهري أو على جنبي الأيمن، أو حين كانت تعاقب أخي الذي يكبرني لعدم أدائه الصلاة في موعدها عقب الأذان مباشرة.. أما ملامحها الشخصية فإنني لا أتذكرها للأسف.. ولم أعرف شكلها فيما بعد إلا من الصور الفوتوغرافية، كما أني لا أتذكر أنني قد حزنت ليلاً عند وفاتها.. فلقد كنت طفلة صغيرة وكل ما عرفته وقتها هو أني لن أر أمي.. ولن أنطق بكلمة «ماما» مرة أخرى.

وكان أبي حين رحلت أمي عن الحياة في التاسعة والثلاثين من عمره شاباً قوياً ووسيماً. وبعد وفاتها نصحه كثيرون من الأهل والأصدقاء بأن يتزوج من جديد، وكان يستطيع ذلك بالفعل ويتركنا في رعاية جدتنا ويتزوج هو في بيتنا لكنه لم يشأ أن يفعل، وكره أن يأتي لنا بزوجة أب قد لا تكون أمينة علينا.

وراح أبي يعمل ويشقى لإعالتنا ورعايتنا وحده ومضت بنا الأيام وكلما تقدمت في العمر إزداد إحساسي بأهمية وجود الأم في حياتنا، وازداد افتقادي لها وبدأت أشعر بالحساسية تجاه كل شيء إلى أن بدأت أشعر بأن أبي يفرق في المعاملة بيني وبين أختي الصغرى وبأنه يفضلها ويفضل أخي الأكبر عليّ، ومع الأيام ازداد شعوري بالظلم وبعدم الاهتمام بي وبأنني غير مرغوبة في البيت واشتدت حاجتي إلى الأم في حياتي، وكثيراً ماقلت لنفسي إن أمي لو كانت على قيد الحياة لما حدث لي شيء من ذلك.. وتضخم إحساسي بالظلم والتفرقة بيني وبين أخوتي من عدة تصرفات صغيرة، وبدأ هذا الإحساس يتعقد داخلي حتى كاد يتحول إلى مايشبه الكره لأختي الصغرى وأخي الأكبر.. بل ولأبي أيضاً! حتى تمنيت أن يأتي شخص ليتزوجني ويأخذني معه إلى بلد آخر بعيداً عن بيتي، وحتى فكرت كذلك ذات يوم في الانتحار تخلصاً من حياتي ومشاكلي!

وكثرت المشاحنات بيني وبين أختي الصغرى وأخي.. وتدخل أبي فيها كلما شكتني إليه أختي.. وخُيل إليّ أنه ينصفها دائماً على حسابي، فازددت إحساساً بالظلم، وكلما عاتبت أبي على ذلك في أوقات الصفاء يقول لي إنها الأصغر مني.. وإن أمنا قد رحلت عنها وهي طفلة وليدة في عامها الثاني أما أنا فقد تمتعت بحنان أمي بضع سنوات..

ولم يكن عقلي يقتنع بهذه الحجة.. فازددت ضيقاً بكل شيء وشعوراً بالظلم، وتكررت المشاحنات بيني وبين أختي وأخي .. إلى أن حدثت مشكلة جديدة بيني

وبين أختي وتدخل أبي بيننا كالعادة.. فلم يحكم لها أو لي كما كان يفعل.. وإنما جمعنا نحن الإخوة الأربعة جميعاً وقال لنا وهو حزين للغاية: لماذا تثيرون هذه المشاكل بينكم دائماً ولماذا لا تحبون بعضكم البعض وتتكاتفون جميعاً في مواجهة الأيام وليس لكم في الحياة أحد غيري؟

ثم سكت لحظات وقال لنا بصوت أكثر حزناً إنه مضطر لأن يصارحنا بما كان يكتمه عنا إشفاقاً علينا، وهو أنه مريض بفيروس الكبد الوبائي «سي» في مراحله الأولى.. ويشعر بالقلق على مصيرنا إذا رحل عن الحياة ولسنا على ما يحب لنا أن نكون عليه من حب ووئام، ولهذا فهو يطالبنا بأن نحب بعضنا بعضا ونتساند لأن كل إنسان من الأهل مشغول بأمره وعائلته ولن يجد الوقت للاهتمام بأمرنا من بعد أبينا.. وتركنا أبي ودخل حجرته فهرولت إلى حجرتي وأنا أشعر بالاختناق وأغلقت بابها عليّ وانخرطت في البكاء.. وشعرت بأسى شديد لأبي وتذكرت كيف كان يعاملني هذا الرجل الطيب وكيف كان يخاف عليّ ويدافع عني.. وتذكرت أشياء كثيرة لم أتذكرها من قبل من مزايا هذا الرجل وتضحياته الكبيرة من أجلنا وتخيلت حالي لو فقدته وكيف سيكون شكل الحياة بدونه.. ودعوت الله من أعماق قلبي أن يحفظه لنا.. وأن يجعلني فداء له لكي يعيش ويواصل رعاية أخوتي، وعجبت لنفسي كيف كرهت ذات يوم هذا البيت الجميل الذي أعيش فيه، وشعرت بتفاهة كل الأسباب التي دعتني من قبل للضيق بالحياة فيه وللإحساس بأن أبي يظلمني.. وحين خرجت من غرفتي بعد وقت طويل وجدت التأثر واضحا على وجوه إخوتي ورحنا نتبادل نظرات الحب والأخوة، وليس نظرات الضيق والتحدي السابقة.

وأنا أكتب رسالتي لك هذه الآن كرسالة اعتذار مني عن كل ما فكرت فيه من قبل تجاه أبي وبعض إخوتي، ولكي أعترف لنفسي بأنه لا شيء في الدنيا يعدل دخول أبي علينا من باب البيت وجلوسه بيننا، وأيضا لأنني أريد بعد ذلك أن أعرف كل شيء عن هذا المرض ما هي مسبباته وأعراضه وعلاجه وهل يمكن الشفاء منه في مراحله الأولى خاصة أن الفيروس كما قال لنا أبي مازال كامناً وغير نشط؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

حين تكون الشمس ساطعة والجو صحواً قد يتلاحى شخصان في الطريق لأتفه الأسباب، وربما تماديا في حمق الخلاف لما هو أكثر من الملاحاة.. فإذا تجهمت السماء فوقهما فجأة وزمجرت العواصف وهطل المطر سيولاً عليهما. فلقد يسرعان بالاحتماء منه تحت أقرب مظلة.. وربما تعاونا على ذلك وهدأت ثائرتهما مع اشتداد العاصفة واقتراب الخطر واكتشاف أن ما أثار خلافهما من قبل لم يكن يستحق منهما بعض ما جرهما إليه.. وربما استشعر كل منهما في الآخر جوانبه

الطيبة التي غابت عنه في ذروة الخلاف، ولقد يغادران المكان بعد هدوء العاصفة وقد صفت نفساهما كما صفت السماء فوقهما بعد التجهم.

وهذا هو ما يحدث غالباً بين البشر حين يواجهون خطراً مشتركاً ينسيهم خلافاتهم العابرة ويوحد مشاعرهم في مواجهته.

وهو ما حدث أيضاً لك ولإخوتك حين اضطر والدكم الطيب لأن يصرّح لكم بما كان يكتمه عنكم من حقيقة مرضه عسى أن تترفعوا عن الخلافات الصغيرة وتصفو مشاعركم الأخوية من شوائبها. ولاشك في أنه كان يفضّل لو ظل طاوياً صدره على همه بأمره بعيداً عنكم لكي يعفيكم من القلق على صحته ومن الإحساس القاتل بالخوف من المستقبل استمراراً لتضحياته من أجلكم حين حرم نفسه من الزواج خوفاً من أن تشقوا بزوجة أب لا تكون رحيمة بكم.. فكيف يُساء فهم مثل هذا الأب الطيب من أقرب الناس إليه، وأجدرهم بتقدير تضحياته من أجلهم؟

لقد غاب عنك يا آنستي أن هذا الأب قد واجه محنة ثقيلة بفقد الزوجة ونهوضه برعاية أربعة أبناء وحده دون سند يخفف عنه هذا العبء.. أو يتولى من وجوهه ما لا تنهض به إلا الأمهات الطيبات. ولأن كل إنسان ميسر لما خلق له فليس من المستبعد أن يعجز والدك في مثل هذه الظروف عن الوفاء ببعض الاحتياجات النفسية والعاطفية لأبنائه وخاصة البنات منهم للأسباب المعروفة، ويصبح من العدل والرحمة أن يتفهم الأبناء أوجه قصوره المحدودة هذه ويلتمسوا له العذر فيها.

غير أني ألتمس لك بعض العذر في مشاعرك غير الناضجة في السابق تجاهه لصغر سنك وقلة خبرتك وظروف حرمانك من عطف الأم وحنانها في الطفولة المبكرة.. فلا بأس إذن بما حدث مادمت قد تطهرت من المشاعر السلبية السابقة تجاه أبيك وبعض إخوتك، واكتشفت عمق حب أبيك لك ولكل إخوتك.. وأدركت قيمة تضحيته الإنسانية من أجلكم جميعاً.. وراجعت موقفك من الأشياء وعرفت بنظرتك الجديدة أنه لا شيء في الحياة يعدل وجود أبيكم بينكم يظلكم بظله ويتدفق عليكم ينبوع عطفه وبره. وقديماً قال الشاعر والأديب جبران خليل جبران: لا يُعرف عمق المحبة إلا ساعة الفراق.

ولقد أضيف إلى هذه العبارة الحكيمة، أن عمق المحبة قد لا يُعرف أيضاً إلا حين يتهدد الخطر من نحبهم.. فيصهر الخوف عليهم مشاعرنا تجاههم ويخلصها مما علق بها من شوائب فتسيل صافية خالصة إلى مصبهم.. فأما المرض وأسبابه وأعراضه وعلاجه فلقد نشر عنه الكثير، وأما أمل الشفاء منه فهو كبير والحمد الله خاصة وهو في مراحله الأولى.. كما أن الطب يسجل انتصاراً جديداً كل يوم في وسائل العلاج منه.. ولن يطول الزمن حتى يحقق النصر النهائي عليه قريباً بإذن الله.. ولعل أفضل ما تعينين به أنت وإخوتك أباكم في معركته ضده، هو أن تتحابوا وتتكاتفوا وتترفعوا عن التوافه وصغائر الأمور لكي ترتفع روحه المعنوية.. ويتحقق له الشفاء العاجل بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القرار السليم!

أكتب إليك بعد تفكير طويل لأروي لك قصتي حتى ترشدني إلى الحل السليم.

فأنا شاب أبلغ من العمر 25 عاماً، ترجع قصتي مع الحياة إلى جذور بعيدة، فلقد كانت أمي زوجة لأقرب أصدقاء أبي إليه.. ثم رحل هذا الصديق عن الحياة تاركاً وراءه زوجته وابنا وابنة، وواجهت أمي بعد وفاة زوجها ضائقة مالية شديدة لم تستطع مواجهتها، فتزوجها أبي بالرغم من معارضة أهله لهذا الزواج وأنجبني منها.. وبعد فترة من زواجهما أنشأ معها تجارة لتوزيع بعض منتجات شركات الإنتاج، ونجحت تجارتهما التي كانت باسم أبي.. وبعد خمس سنوات نشبت المشاكل بينهما وانتهزت أمي - كما عرفت فيما بعد - فرصة سفر أبي لإحدى المحافظات واستولت على بضائع تجارته وقامت بإخفائها عند إحدى قريباتها، وتفاقمت المشاكل بينهما وانتهى الأمر بطلاقهما وتنازل أبي لها عن تجارته.. وعن السيارة وشقة التمليك اللتين كتبهما من قبل باسمها. وغادرنا أنا وأبي بيت الزوجية لا نملك إلا ملابسنا، وأقمنا، وأنا طفل في السادسة من عمري في بيت جدي، والتحق أبي بالعمل في إحدى الشركات لمدة ثلاث سنوات، ثم أنشأ مع زوج إحدى عماتي تجارة جديدة، ورفض أبي الزواج مرة أخرى خوفاً من أن يأتيني بزوجة أب تسيء معاملتي.. وتمتعت في حياتي ببيت جدي بعطف أبي وحنان عماتي وأعمامي الذين يقيمون في نفس العمارة.. إنسانة واحدة لم أتمتع بحنانها ولم أرها رؤية العين، منذ الانفصال، هي أمي!! فلم تسأل عني في يوم من الأيام ولم تسع لرؤيتي.. بل رفضت أيضاً - كما عرفت - أن تراني حين أرسل إليها أبي مع أحد أصدقائي يبلغها بحاجتي النفسية إلى حنانها ورؤيتها.

ومضت بي الأيام وأنا يتيم معنوياً بالرغم من وجود أم لى على قيد الحياة، وتقدمت في مراحل الدراسة، وحصلت على الثانوية العامة بمجموع 95.5 % والتحقت بالكلية العملية المرموقة وتفوقت أيضاً في دراستي بها، ونشأت ملتزماً دينياً، وخلال هذه السنوات كانت تجارة أبي وزوج عمتي قد نجحت وأتت بثمارها، فكانت هدية أبي لي بعد التخرج شقة تمليك لكي أتزوج بها حين يأتي الأوان.. وإلى جانب الشقة فاجأني أبي بدعوتي لأداء العمرة معه مكافأة لي على نجاحي وتفوقي.

وفي إحدى الأسواق بالأراضي الحجازية لفت نظري وأنا واقف إلى جوار أبي وجود سيدة ورجل يبدو من ملامحهما أنهما مصريان ولا يكفان عن التحديق فينا باهتمام غريب، فلفت نظر أبي إليهما وسألته عما إذا كان يعرفهما، فما إن رآهما حتى توجه ناحيتهما وهو يجرني معه وصافحهما، ودعاني لمصافحتهما، وعرفني بهما فإذا بهما خالتي وزوجها!

ودعاهما أبي لتناول الغداء معنا بأحد المطاعم.. وعلى مائدة الطعام راحت خالتي تتوسل لأبي أن يأخذني بعد عودتنا لمصر إلى زيارة أمي التي تعاني بعض المشاكل الإنسانية والصحية.. وتحدثت خالتي طويلاً عن معاناة أمي مع أخي

وفشل أختي في الدراسة وسوء حظها في الزواج الذي أوقعها في زوج يسيء معاملتها إلى حد التطاول عليها بالسب والضرب، ومرض أمي بالسكر وسوء حالتها الصحية وكيف أنها قد اعترفت بظلمها لأبي ولي، وتقصيرها معي وعدم اهتمامها بالسؤال عني طوال السنوات الماضية، ولكن كبرياءها كان يمنعها من قبل من التصريح بذلك، وانتهى اللقاء بيننا بوعد من أبي لخالتي بأن يصطحبني بعد العودة لزيارة أمي، ووصل ما انقطع بيني وبينها.

ورجعنا إلى بلدنا، وراح أبي يحاول! بارة أمي فلم أجد في نفسي أية رغبة في ذلك، وصارحته بأنني لا أريد أن أزورها ولا أشعر بافتقادها بعد أن أهملتني 19 عاما كاملة وانصرفت عني..

ولم ييأس أبي من محاولة إقناعي.. وبلغ في توسلاته إليّ لكي أفعل ذلك أن قبَّل رأسي داعياً لي الله أن يهديني سواء السبيل.

واختتم محاولاته بأن تركني لنفسي ونصحني بالسفر لعدة أيام إلى فايد لكي أخلو بنفسي في قرية سياحية هناك وأفكر تفكيراً هادئاً ثم أرجع منها بقرار سليم.. وشكرته على نيته الطيبة، وسافرت بالفعل لعدة أيام وحاولت أن أتجرد من مراراتي القديمة تجاه أمي، وانتهت الرحلة ورجعت إلى بيتي دون التوصل لهذا القرار.

إن أحدا من أهل أبي لم يذكر أمي أمامي ذات يوم بسوء، ولا فعل ذلك أبي لكني لم أستطع بالرغم من ذلك أن أغفر لها إهمالها لي ورفضها لرؤيتي طوال السنوات الماضية.. بل إنني لم أغفر لها أيضاً افتعالها للمشاكل التي أدت لانفصالها عن أبي وحرمتني من الحياة الطبيعية بينها وبينه..

كما لم أغفر لها مباعدتها بيني وبين إخوتي منها حتى نشأنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر..

إن نفسي مازالت مملوءة بالمرارة تجاهها.. وأبي يُلح عليّ بأن أنسى، وبأن أكون باراً بأمي.. لكنها لم تعطني من حنانها شيئاً.. فكيف أعطيها أنا من برى؟ إنني حائر ومتردد، فبماذا تشير عليّ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من حقك ياصديقي أن تتجدد المرارة القديمة في نفسك تجاه والدتك حين تثار قضية وجودها في حياتك مرة أخرى بعد هذه السنوات الطويلة من الغيبة.. والاختفاء.

ومن حقك أيضاً أن يكون قرارك بالرفض المطلق هو استجابتك الأولية لدعوتك إلى زيارتها بعد هذه القطيعة الطويلة.

فمثل هذا القرار الانفعالي هو رد الفعل الطبيعي لهذه الدعوة التي تنكأ الجراح القديمة لديك. وكثيراً ما نعبر بمثل هذا الرد الانفعالي عن مشاعرنا البدائية تجاه الأحداث والأمور التي تثير حنقنا أو تشعرنا بالغصة في حلوقنا تجاه من أساءوا إلينا، غير أننا - على الناحية الأخرى - كثيراً ما نراجع أنفسنا بعد فترة الاستسلام المبدئية لهذه المشاعر الانفعالية ونروض انفعالاتنا الجامحة.. ونكبحها بلجام الدين والعقل والعدل والرحمة.. ونحاول أن نفكر فيما أثار حنقنا بروية، وأن نجنب تفكيرنا فيه دواعي التأثر بانفعالاتنا تجاهه.. لنتوصل في النهاية إلى ما لا يتجافى مع القيم الدينية والأخلاقية من قرارات عادلة. ولن نكون بشراً كالبشر لو لم تتفجر في البداية انفعالاتنا الجامحة هذه تجاه ما يجرح مشاعرنا وكرامتنا وينكأ جراحنا، أو يستفز ذكرياتنا الأليمة. ولن نكون من الصالحين الذين يدعون ربهم في العشية والأسحار أن يجنبهم مزالق السوء ويحميهم من غدر الأيام لو لم نراجع أنفسنا بعد هذه الانفعالات الأولية ونكظم غيظنا ممن أساءوا إلينا ونهتد بالدين والحق والرحمة في مواقفنا منهم.

ولهذا فلا لوم عليك في رفضك الانفعالي الاستجابة لنداء زيارة والدتك بعد 19 عاماً من انقطاعها عنك دون سبب مفهوم لديك أو عذر مقبول منها.

لكني سوف ألومك بكل تأكيد إذا تحجرت عند هذا الموقف الأولي، وتمسكت به بعد فترة رد الفعل التلقائية لهذه الدعوة المجددة للأحزان والأشجان، ذلك أنه قد يكون مقبولاً أن نعامل كل البشر بالمبدأ الذي تتعامل به الدول فيما بينها وهو مبدأ المعاملة بالمثل، لكن ليس من المقبول أبداً أن نتعامل به مع آبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وذوي رحمنا.

فأما أبناؤنا فإن فطرتنا تقهرنا على الرفق بهم والحرص عليهم حتى ولو لم يقدروا لنا هذا الحرص.. أو لم يكافئونا عليه ببرهم بنا.. وأما آباؤنا وأمهاتنا فنحن مأمورون بأن نترفق بهم ونحسن صحبتهم حتى ولو جاهدونا على ألا نعبد الله سبحانه وتعالى.

وأنت تقول إنك قد نشأت ملتزماً دينياً، وكانت مكافأتك على تخرجك وتفوقك زيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه فكيف يغيب عنك إذن أنك تقترف إثماً عظيماً برفضك زيارة أمك في ضعفها وحاجتها إليك، حتى ولو كانت قد تخلت عنك وباعدتك وهي في عنفوانها وقوتها؟

إنك لا تستطيع معاملتها بالمثل.. ولا حتى «عقابها» على ما قصرت فيه من حقك، بحرمانها منك أو من رؤيتك حين توجه إليك النداء، لأنك لا ترجو بزيارتها شيئا من رضاها أو حنانها الذي حرمت منه.. وإنما ترجو بها فقط رضا خالقك سبحانه وتعالى وأن تعفي نفسك من إثم عقوقها حتى ولو كانت قد عقتك من قبل، مادامت قد ندمت على ما اقترفت في حقك ورغبت في التكفير عنه.

ومن رحمة ربنا بنا أنه لا يعاقبنا على ما يمور في صدورنا من انفعالات سلبية تجاه الغير ما لم نعبر عنها بالأفعال والتصرفات، وأنت لست مطالباً في النهاية بأن ينفجر في قلبك ينبوع الحب لأمك كما يتدفق في صدر الابن البار تجاه أمه الرؤوم

العطوف التي رعته صغيرا وأحبته كبيرا، وإنما بأن تترفق بها وتسمع دفاعها عن نفسها وتبريرها لمجافاتها لك وانقطاعها عنك طوال السنوات الماضية، فلقد يتضح لك أن لديها بعض ما يبرر تقصيرها في حقك من وجهة نظرها .. ولقد يكون كل مالديها هو الإقرار بخطئها معك وتقصيرها **في حقك ورجائها لك أن تصفح عما كان من أمرها وتغفره.**

والحقيقة على أية حال يمكن النظر إليها من أكثر من زاوية للرؤية.. وأنت تقول إنك لم تسمع من أبيك وأعمامك وعماتك كلمة سوء عن أمك طوال حياتك معهم.. وقد يكون ذلك صحيحاً.. ولقد يكون والدك قد أحسن إليك بعدم الإساءة إلى رمز الأم في مخيلتك كما ينبغي للآباء والأمهات الصالحين أن يفعلوا مع أبنائهم.. لكنك على الناحية الأخرى قد علمت من أمرها الكثير مما أسهم في تشكيل رأيك السلبي فيها إلى جانب غيابها عنك، كقصة زواجها من أبيك بعد صديقه الراحل.. وقصة إخفائها بضائع تجارته واستيلائها على الشقة والسيارة والتجارة، وقصة رفضها الاستجابة لدعوة الأب لها لزيارة طفلها المحروم من أمه..

فكيف عرفت إذن كل هذه الأمور إن لم يكن قد جرى بالضرورة حديث لا مفر منه لتبرير يتمك المعنوي مع وجود أمك على قيد الحياة؟ إنني أومن بأنه لاشيء في الدنيا يمكن أن يبرر لأم أن تتخلى عن صغارها بلا أسباب قهرية أو أن تكرر معهم سيرة إناث الضفادع التي تضع بيضها في المستنقع ثم تهجر صغارها وتتركها تكافح أسباب الموت بمفردها.

لكني أومن أيضاً بأنه لاشيء في الحياة كذلك يمكن أن يمنع ابناً من تلبية نداء أم اعترفت كما تقول شقيقتها بخطئها في حقه وندمت عليه وترجو أن ترى ابنها وتشرح نفسها له.

ولست أنصح بأية حال من الأحوال إذا استجبت لندائها كما ينبغي لشاب ملتزم دينياً مثلك أن يفعل، بالتحقيق بأثر رجعي فيما حدث بين أبويك، ولا بمحاكمة الماضي وإصدار الأحكام القاسية عليه.. وإنما فقط بقبول اعتذارها إذا اعتذرت والصفح عما جنت في حقك، أو بسماع تبريراتها إن لم تعتذر لك بتحفظ لا يحرمها حق الدفاع عن نفسها من ناحية ولا يورطك في سماع ما يسيء إلى أبيك أو يجرح مشاعرك تجاهه من ناحية أخرى.

فإذا ظللت بعد أن تسمع لها مقتنعا بظلمها لك بغير أسباب قهرية، فليكن صفحك عما فعلت ورفقك بها في ضعفها قربى لربك وشفيعاً لديه أن يكتب لك السعادة في أيامك المقبلة، ولتتذكر في مثل هذا الموقف دعاء العادل العظيم عمر بن الخطاب رضوان الله عليه حين دعا ربه قائلاً: رب قدِّرني على من ظلمني لأجعل عفوي عنه شكراً لقدرتي عليه.

ومع فارق الحال بين من ينطبق عليهم هذا الدعاء من الغرباء وبين وضع الأب والأم وذوي الرحم في حياة الإنسان، فإني أسألك في النهاية: ألا تحب أن يكون عفوك عما أساءت به إليك أمك.. هو شكرك لخالقك العظيم سبحانه وتعالى على ما

أنعم به عليك من نعم جليلة كنعم الأب الرحيم والتفوق في الدراسة والصحة والشباب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الستائر المسدلة!

أكتب إليك لأستشيرك في أمر يشغلني ويملك عليّ كل فكري .. فأنا سيدة في السادسة والأربعين من عمري مازلت أحتفظ بقدر كبير من جمالي ورشاقتي، كما أن شخصيتي اجتماعية ومحبوبة من الآخرين.. ولقد تزوجت منذ 22 عاماًمن إنسان تعرفت عليه في نطاق الأسرة وأعجبتني شخصيته وأحببته.. وأحبني، وتعاونّا على إقامة عشنا المشترك.. ووقفت وراءه في كل خطوة حققها في حياته العملية.. وأنجبنا بعد الزواج ابنتين وولدا.. وتخليت عن طموحي المهني من أجله ومن أجل أبنائي، فحصلت على إجازة بدون مرتب بعد الإنجاب لرعاية أطفالي الصغار، وتفرغت لهم وله، وتفننت في تجميل بيتنا وحياتنا، بموهبتي التلقائية في الديكور والتزيين.. وأنفقت كل هبات أبي المالية لي بعد الزواج في إضافة الجديد من قطع الأثاث.. وتغيير الستائر.. وتركيب الباركيه.. حتى صار بيتي تحفة يفتخر بها زوجي ويدعو رؤساءه في الشركة التي يعمل بها للعشاء فيه في المناسبات وهو يزهو بي وبإجادتي للطهي أمامهم.. وبعد أن استنفدت رصيدي من الإجازة بدون مرتب عدت للعمل في الهيئة الحكومية التي عينت بها بعد التخرج وعملت بضعة أعوام أخرى.. ثم عدت للتفرغ للأسرة مع بدء ابنتي الكبرى لمرحلة الثانوية العامة.. وبعد نجاحها بتفوق والتحاقها بالكلية التي رغبت فيها عدت للعمل لمدة عام آخر ثم تفرغت مرة ثالثة حين جاء دور الابنة الثانية مع مرحلة الثانوية العامة.. وهكذا وزوجي سعيد بي وبأبنائه وبيته ويشيد بأمومتي وعطائي له ولأبنائي.. في كل مناسبة.. وحياتنا تمضي سعيدة وزاخرة بالحب والود والصداقة والتفاهم. أما المشاكل العابرة التي لا يخلو منها أي بيت.. فلقد كانت تعبر حياتنا عبوراً سريعاً لا يترك أية مرارة تؤثر على علاقتنا الحميمة.. وحافظنا دائماً على علاقة المودة والحب والرحمة التي تجمع بيننا، ومنذ بضع سنوات رحل أبي عن الحياة يرحمة الله وهو راض عني وعن زوجي ويوصيني به ويوصيه بي، وورثت عنه مبلغاً من المال وضعته في وديعة بالبنك.. واستفدت بعائدها السنوي في التوسعة على أبنائي ونفسي وزوجي، وأصبحت أمي بعد رحيل أبي لاتجد راحتها إلا في بيتي.. بالرغم من إلحاح إخوتي عليها لاستضافتها عندهم.. فكانت تنتقل بين بيتها وبيوتهم.. وتستقر عندي لفترات أطول لحبها لي ولزوجي وأبنائي.. وفي غمرة سعادتنا بحياتنا وأسرتنا مرض زوجي فجأة مرضاً شديداً.. وتدهورت حالته الصحية خلال وقت قصير.. وأنا لا أكاد استوعب حقيقة ما يجري أمامي.. وتركت أبنائي في رعاية أمي وانشغلت كلية برعاية زوجي والتنقل معه بين الأطباء.. ودخول المستشفى من حين لآخر، وأوفدته الشركة الكبرى التي يعمل بها للعلاج في الخارج ولم يكن في قرار سفره بند لمرافق لأن طبيب الشركة يسافر مع مرضاها المحتاجين للعلاج في الخارج، فاقتطعت من وديعتي بالبنك مبلغاً كبيراً وسافرت معه، وأمضيت بالغربة شهرين كاملين تلقى خلالهما العلاج المكثف في أحد المراكز المتخصصة، ولاحت بشائر الأمل في تحسن حالته ورجعنا ونحن نتعلق بالأمل في الشفاء فلم تمض أسابيع حتى كان الداء قد هزمه.. ورحل عن الحياة وتركنا وأحسست بعد رحيله بأنني فقدت

الأمان.. والإحساس بطعم الحياة.. واستسلمت للحزن والاكتئاب. وخيَّم الصمت والظلام والكآبة على حياتنا، وأسدلت ستائر المسكن الجميل الذي أثثناه قطعة قطعة على النوافذ وأبواب الشرفات كأنني لا أطيق أن يتسلل ضوء النهار إلى البيت الحزين.. ورفعت فيشة أجهزة التليفزيون في غرفة المعيشة وغرف النوم.. وغطيتها كلها بقطع من القماش. وحرمت على نفسي وأبنائي سماع الموسيقى والغناء من الراديو أو أجهزة التسجيل بالرغم من إشفاقي عليهم من حزنهم وافتقادهم لأبيهم الحنون طيب القلب الذي كثيراً ما غبطت نفسي عليه وشكرت الله كثيرا أن أنعم به وبأبنائي عليّ ودعوت له ولهم كل يوم أن يحفظهم ربهم من كل سوء، وواصلت الاستسلام لنوبات البكاء وأمي تلومني على استغراقي في الحزن والكآبة.. وتطلب مني التخفيف عن نفسي وعن أبنائي وفتح نوافذ المسكن ومساعدة أبنائي على تجاوز المحنة والخروج من البيت.. وقطع الإجازة والعودة للعمل لكي يشغلني عن أحزاني.. ومضت أسابيع ونحن على هذه الحال.. ثم بدأت أسمع غمغمة وكلاماً مبهماً ممن حولي.. وتكرر الكلام الغامض دون أن أفهمه.. إلى أن تخلص بعضهم من الحرج وقالوها لي صريحة.. وهي أن زوجي الحبيب الراحل الذي كان بالنسبة لي ككتاب مفتوح قرأت كل صفحاته، كان متزوجاً زواجاً عرفياً موثقاً لدى المحامي من أرملة لها أبناء وتتقاضى معاشاً عن زوجها الراحل ولولا ذلك لتزوجها زواجاً رسمياً، وأن هذا الزواج السري تم منذ سبع سنوات وظل مستمراً حتى اللحظة الأخيرة دون أن أدري وقد تكشف لهم أمره بعد رحيله عن الحياة بأيام قليلة.. وصدمت في وفاء زوجي لي صدمة أذهلتني عن صدمة فقدي إياه وتملكني الذهول فترة طويلة.. وفقدت الثقة في نفسي وفي الحب والإخلاص والوفاء وكل القيم المثالية، وتعجبت كيف تزوج هذه السيدة.. ولماذا.. ومتى تعرف بها.. وأين.. وكيف لم ألحظ عليه شيئاً خلال سبع سنوات؟! وبعد فترة الذهول الأولى، فوجئت ببركان من الغضب ينفجر داخلي ونهضت من نومي في الصباح ذات يوم فوجدتنى أفتح الستائر المسدلة في كل نوافذ البيت.. ليدخل ضوء الشمس إلى المكان.. وأرفع الغطاء عن أجهزة التليفزيون.. وأفتحها كلها وأخلع الملابس السوداء وأرتدي الملابس الرمادية والزرقاء وأطلب من البنتين أن تخلعا ملابس الحداد وترتديا ماتشاءان من الملابس الملونة ماعدا الحمراء منها.. وتتساءل الابنتان عن السبب في هذا الانقلاب فأشفق عليهما من الإجابة وأغير الموضوع.. وأتحمل نظرات اللوم في عينيهما، حين أخرج في زيارات عائلية أو إلى الأسواق وأدعوهما للخروج معى للترويح عن نفسيهما.. وبالرغم من كل ما أحسست به من غيظ وقهر حين عرفت بأمر الزواج السري لزوجي إلا أنني لم أصارحهما بعد بسبب تغيري.. وخلعي لملابس الحداد.. أما حيرة ابني الصغير لما طرأ عليّ من تغيرات فلقد فسرتها له بأنني أريد مساعدتهم بذلك على عدم الاستسلام للحزن حتى لا تتأثر صحتهم ودراستهم.

وفي بعض الأحيان أستريح لما فعلت.. ولالتزامي الصمت مع أبنائي بشأن أبيهم.. وفي بعض الأحيان يتملكني السخط والغيظ فأعتزم مصارحتهم بالسبب الحقيقي.

وإني أسألك يا سيدى كيف يأمن المرء للآخرين إذا كان أقرب الناس إليه قد تكشف له في النهاية عن شخص آخر له حياة سرية استمرت سبع سنوات دون أن أدري عنها شيئاً؟. وبماذا تنصحني أن أفعل مع أبنائي.. هل أصارحهم بهذه الحياة السرية لأبيهم.. وبسخطي الهائل عليه بسببها أم أدعهم في أحزانهم على الأب المثالي الذي يفتقدون حنانه ورعايته وطيبته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ذكرتني رسالتك بقصة شهيرة للأديب الفرنسي جي. دي موباسان بعنوان «الجواهر» روى فيها قصة فتاة شابة جميلة كالملائكة ذات خفر وحياء ووداعة.. تزوجت من موظف بوزارة الداخلية فسعد بها وسعدت به، وكانت مثالاً للإخلاص والوفاء والطهر.. وتتفنن في إرضاء زوجها.. وفي تدبير معيشتهما بمرتبه المحدود بلا شكوى ولا أنين.. ولم يكن يعيبها في نظره سوى شيئين هامشيين هما: ولعها الغريب بمشاهدة المسرح.. وولعها الأغرب بارتداء الجواهر المقلدة رخيصة الثمن لتكمل بها زينتها البسيطة.. ولقد كان يتجاوز عن هواية الجواهر المزيفة ويشفق عليها من فقره وعجزه عن أن يهديها ذات يوم قطعة جواهر حقيقية.. لكنها سعيدة بحياتها وراضية عنها ولا تشكو شيئاً، ثم رجعت من المسرح ذات ليلة مصابة بالتهاب رئوي من أثر البرد القارس، واشتد بها المرض خلال فترة قصيرة حتى أودى بحياتها، فكاد زوجها يهلك حزنا عليها وافتقد برحيلها عن الحياة أنس عشرتها الطيبة له وإخلاصها ووفاءها وأخلاقها الملائكية، وازداد افتقاده إياها حين عجز عن أن يدير شئون حياته بمرتبه المحدود، وتعجب كيف كانت تتفنن في تدبير أمور حياتهما معاً بهذا المرتب نفسه. واشتدت أزمته المالية ذات يوم ورأى أمامه صندوق مجوهراتها المزيفة الذي كان يطلق عليه مازحاً صندوق الخردة، فقرر أن يبيع عقداً منه لعله يأتيه ببضعة قروش تعينه على أمره، وتوجه إلى أحد محلات الجواهر وعرض العقد الزائف على صاحبه على استحياء فإذا به يكتشف أنه من اللؤلؤ الحقيقي وباهظ القيمة.. وإذا به يكتشف بعد ذلك أن صندوق الخردة الذي خلّفته وراءها زوجته يضم ثروة ثمينة من الجواهر الحقيقية أهداها إليها عشاقها خلال السنوات التي عاشتها معه.. ويكتشف أنه كانت لها حياة سرية مؤسفة لم يكن يدري عنها شيئا ولم تتكشف له أية إشارة إليها إلا بعد رحيلها المفاجئ عن الحياة، والدرس الذي ينبغي لنا أن نستخلصه من رسالتك ومن هذه القصة ومثيلاتها في الحياة هو أنه ليست هناك حياة سرية يمكن أن تبقى طي الكتمان إلى ما لا نهاية. وأنه من الحكمة أن تخلو حياة المرء الخاصة مما يسوؤه أن يعرفه عنه الآخرون في حياته أو بعد رحيلة عن الدنيا.. إذا كان حقاً ممن يحرصون على احترامهم لأنفسهم واحترام الآخرين لهم في الحياة.. ولذكراهم بعد رحيلهم عنها.

والكارثة هي أن بعض البشر لا يتصورون أن طائر الموت يمكن أن يحل فوق رؤوسهم فجأة.. فيهتك كل الأستار ويذيع كل ما أجهدوا أنفسهم في تكتمه وإخفائه من أسرار شخصية، مع أن كل الأسرار لابد أن تتكشف بعد حين.

وقديما قال الشاعر العربي:

ومهما تكن عند أمرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

غير أنني أقول لك بعد ذلك إن النبلاء من البشر هم الذين إذا أساء إليهم أحد تجاوزوا عن إساءته واستهدوا في ذلك بمضمون الحديث الشريف الذي يقول لنا: «تجافوا عن عثرات الكريم»، أو سخطوا عليه إن عز عليهم الصفح. ولكن بغير أن يجرفهم السخط إلى هاوية الرغبة في الانتقام منه وبغير أن يمدوا مظلة سخطهم عليه إلى الآخرين الذين لم يسيء إليهم إساءة مباشرة، ويطالبونهم بالانضمام إليهم في موقفهم منه.. أو يعمدون إلى تشويه صورته أو ذكراه في نفوسهم.

والزواج السري أو الحياة السرية لزوجك التي طالت سبع سنوات ولم تكتشفي وجودها إلا بعد رحيله عن الحياة خطأ كبير ارتكبه زوجك في حق الوفاء لك بغير جدال، ومن حقك بكل تأكيد أن تغضبي له.. وتشعري بالسخط على مرتكبه بل وأن تهتز ثقتك لبعض الوقت في قيم الحب والوفاء والإخلاص والعشرة الزوجية.

لكن ماليس من حقك هو أن تسحبي غضبك لكرامتك الشخصية من زوجك وصورته المثالية كأب عطوف لأبنائه في مخيلتهم، ولو فعلت ذلك استجابة لنوازع السخط والرغبة في الانتقام منه بأثر رجعي.. فإنك ترتكبين بذلك خطأ أكثر فداحة في حق أبنائك ومعنوياتهم ومثلهم العليا في الحياة، فالأبناء ياسيدتي لا يسعدون باهتزاز رمز الأب في مخيلتهم.. ولا بالإساءة إلى ذكراه.. مهما يكن رأي الغير فيه. ولقد خسر الأبناء بفقد أبيهم خسارة إنسانية كبرى مهما يكن من أمره معك.. وليس من الرحمة بهم أن تضاعفي من أحزانهم على فقد أبيهم بتجريح ذكراه فاغفري له إن شئت ما كان من أمره بعد أن أصبح بين يدي مولاه، أو اسخطي عليه كما تشائين إذا عجزت عن الصفح الآن، ولكن لا تصدمى أبناءك في أبيهم، ولا تهزي مثاله الطيب في نفوسهم وتحفظي في «تحررك» من الحداد عليه أمامهم على الأقل لكيلا تجرحي مشاعرهم وتزيدي من أحزانهم وحيرتهم أمام حقائق الحياة المؤلمة..

فالحق أنه لا شيء يجرح قلب المحزون أكثر من أن يستشعر استهانة الغير وخاصه أقرب الناس إليه بأحزانه على من فقده.

ولقد يكون من الأوفق لك أن ترجعي إلى عملك الآن لكي يشغلك عن أفكارك وهواجسك.. ورغبتك المؤرقة في الانتقام لنفسك من الطعنة الغادرة التي تلقيتها في وفاه زوجك لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحب الزائف!

أنا شاب في الخامسة والثلاثين من عمري أحمل مؤهلاً عالياً وأعمل عملاً حراً يتطلب مني السفر من مدينتي التي أقيم بها إلى عاصمة المحافظة.. وأنا أصغر إخوتي حيث إن لي خمس شقيقات.. وقد نشأت يتيماً إذ مات أبي وأنا في السابعة من عمري .. وأحوالي المادية معقولة ولدي مسكن جيد به كل الكماليات وأنا إنسان ملتزم وأحفظ نصف القرآن الكريم وأحافظ على ديني قدر المستطاع..

والمشكلة التي أكتب إليك بشأنها ليست مع زوجة أو أبناء أو إخوة أو أخوات وإنما مع أمي!

نعم أمي.. فهي تحبني بطريقة مرضية مخيفة وترفض مجرد الحديث في أي مشروع لزواجي، فإذا أخطأت إحدى شقيقاتي - وكلهن متزوجات - وحدثتني أمامها في أمر زواجي، فيا ويلي منها بعد انصراف أختي وعودتها إلى بيتها إذ ما أن تنصرف حتى تنهال عليّ أمي بأقذع الشتائم وتكشف رأسها وتدعو عليّ بكل مصائب الحياة وتهددني بغضب قلبها عليّ إلى يوم القيامة إذا تزوجت قبل أن تودع هي الدنيا!.. ومنطقها في ذلك هي أنها قد ربتني يتيماً وتحملت عبء رعايتي وحيدة ورعتني وعلمتني فكيف إذن تأخذني منها - على الجاهز - امرأة أخرى؟

ولست في حاجة لأن أحكي لك عن الجهود التي بذلتها شقيقاتي وأقاربي وبذلتها أنا معها لكي تقبل بفكرة زواجي وتطلق سراحي فأتزوج قبل أن يتقدم بي العمر أكثر من ذلك، فلقد كانت في كل مرة تتظاهر تحت ضغط الأهل والشقيقات عليها بالموافقة.. فما إن تظهر لي فتاة مناسبة وأشرع في السعي لخطبتها حتى تهبط على أمي كل أمراض الدنيا ويصبح لا هم لي إلا الذهاب معها إلى طبيب والعودة من عند طبيب آخر.. وإجراء التحاليل والأشعات ونظل على هذا الحال شهراً كاملاً أنفق فيه ما أكون قد جمعته من المدخرات خلال شهور من العمل الشاق. فما إن يفشل مشروع الخطبة أو يتعثر أو أنصرف عنه حتى تتقدم صحة أمي خلال أيام.. وترجع دماء العافية إلى وجهها وتتحسن نتائج التحاليل والأشعات بقدرة قادر.. وبعد أن تكررت نفس القصة أكثر من مرة بنفس تفاصيلها نصحتني إحدى شقيقاتي بأن أتقدم لإحدى زميلاتي في العمل وأخطبها من أهلها في «السر» أي بغير علم أمي ثم أحافظ على سرية الخطبة إلى يوم عقد القرآن وعندها تجد أمي نفسها أمام الأمر الواقع وعملت بالنصيحة وخطبت زميلة لي تصغرني بخمس سنوات ووافق أهلها مشكورين على تكتم الخطبة حتى يوم القرآن.

وقبل عقده بأيام علمت أمي بالخبر فلم تقل شيئاً في البداية لكنه ما إن اقترب يوم القرآن حتى سقطت مريضة كالعادة وعانت من أزمة صحية خطيرة ظننت معها أنها في النزع الأخير وتعذر عقد القرآن بالطبع.. وحددنا له موعداً آخر فما إن جاء حتى حدث نفس الشيء وتأجل مرة ثانية وثالثة.. إلى أن اعتذر أهل خطيبتي

عن عدم إتمام المشروع وأعادوا لي الشبكة والهدايا وشعرت بالأسى لنفسى.. وزاد من حزني أنني رأيت أمي وهي تكاد ترقص طربا بإرجاع الشبكة لي!

لقد نصحني صديق لي باستشارة طبيب نفسي في حالة أمي، فسافرت إلى القاهرة بالفعل واستشرت طبيباً متخصصاً فنصحني بألا أمانع في زواج أمي إذا رغبت في الزواج لأنها ربما تشعر بالغيرة عليّ، وأبلغت شقيقاتي بما قاله الطبيب فاعترضن جميعاً على فكرة زواجها لكبر سنها حيث أنها تجاوزت الخامسة والستين.

ومازال الحال كما هو عليه..

ومازلت محروماً من حقي في الزواج وإلا مرضت أمي وأشهدت السماء والأرض على غضب قلبها عليّ إلى يوم الدين.. فماذا أفعل ياسيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا شك في أن والدتك تشعر تجاهك بنوع من الغيرة المرضية يدفعها إلى الرغبة في الاستئثار بك لنفسها دون غيرها من البشر.

وفي رأي عالم النفس الأمريكي كولز أن الأم التي تتصف بمثل هذه الغيرة المرضية على ابنها هي أم مصابة بوسواس قهري قد يدفعها ذات يوم إلى ارتكاب عمل شائن بعيد عن الحكمة والعدل، وقد يوشك في بعض الأحيان أن يقترب من دائرة الإجرام.. وهي في النهاية مريضة وليست شريرة بطبعها كما أنها حالة شاذة بين الأمهات قد تظهر لدى الأمهات الوحيدات اللاتي عكفن على تربية ابن وحيد أو ابنة وحيدة بعد ترملهن أو طلاقهن، أكثر مما تظهر عند غيرهن من الأمهات اللاتي عشن حياة زوجية طبيعية تقاسمن خلالها مسؤولية تربية الأبناء مع أزواجهن.

وفي مثل هذه الحالة الشاذة فإن الأم تشعر أن ابنها هو كل عالمها فتغالي في الاهتمام بأمره والعناية بشخصه وتغار عليه من كل نظرة، ولا ترضى منه ببعض اهتمامه، أو بعض وقته، وإنما تريده كاملاً لنفسها كل الوقت.. ولما كان انصراف مشاعره إلى امرأة أخرى وزواجه منها سوف يتعارض بالضرورة مع هذه الرغبة المتوحشة في الانفراد به دون العالمين فلابد إذن من أن تسعى ولو بالحيلة إلى تدمير كل علاقة عاطفية جادة له مع أية فتاة.. وكل شروع للارتباط النهائي بها.. وفي سبيل ذلك قد تستعين بالحيلة والدهاء والابتزاز النفسي والعاطفي للابن لتحقيق هدفها..

ومثل هذه الأم يرى البروفسور كولز أنها تكون عادة واسعة الحيلة وماهرة في التأثير على ابنها تأثيراً يفرق بينه وبين شريكته في الحياة وكثيراً ما تلجأ إلى الكذب وتفسير الحقائق تفسيراً مغرضاً وقد تُصاب بسبب الغيرة القاتلة التي تنهشها على ابنها ممن ارتبط أو يعتزم الارتباط بها، بأمراض شتى فيجد الابن

نفسه موزعا بين نارين: البر بأمه والعدل مع شريكته، ولا عجب في مرضها بهذه الأمراض الحقيقية لأن الخوف من فقد الابن في مفهومها بزواجه من أخرى.. يؤثر بالفعل على جهازها العصبي وعلى جسمها، وأنت ياصديقي الابن الوحيد بالرغم من وجود شقيقات لك لأم وحيدة ربتك طفلاً بعد ترملها وبالغت في الاهتمام بأمرك حتى خُيّل إليها أن من حقها امتلاكك والاستئثار بك وحدها إلى آخر أيام حياتها.. وهي علاقة مركبة ومعقدة وتحمل من الأنانية وحب التملك أكثر مما تحمل من الحب الحقيقي السليم الذي يسعد صاحبه بسعادة من يحبه وليس بحرمانه من السعادة وحقه الطبيعي في الحياة.. وهي قد تمرض بالفعل.. أو تستدعي المرض بعقلها الباطن كلما استشعرت خطر ضياعك من يدها.. كما أنها تبتزك عاطفياً بالتهديد بغضبها عليك إذا أقدمت على «خيانة» حبها الأناني الزائف لك وتزوجت من أية فتاة.. وفي مجتمعاتنا الشرقية فإننا نجفل عن حق من غضب الأمهات والآباء ونخشى معه غضب السماء علينا ونتوقع له أوخم العواقب على حياتنا.. وكل ذلك صحيح لكن الدين يقول لنا في نفس الوقت إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. وإصرار والدتك على حرمانك من حقك العادل في الزواج وإعفاف نفسك يعطل سنة الله في خلقه وقد يوردك إذا استمر الحال على ماهو عليه موارد الرذيلة.

إذن فلا طاعة لها في معصية ربك..

ولا خوف عليك من غضبها عند رب العالمين لأنه إنما يتقبل الله من المتقين، وليس من المخالفين لشرعه والمعطلين لسنته والحاثين من حيث لا يدرون على الرذيلة. فابحث لنفسك عن فتاة محاربة مناضلة قوية الشكيمة لديها الاستعداد لأن تتحمل الحرب الضارية التي ستشنها عليها أمك في البداية.. والمؤامرات التي سوف تحيك خيوطها ضدها وتحاول بها إظهارها أمامك في أسوأ صورة..

وتحمل أنت نوبات مرضها الاحتجاجي على زواجك، إلى أن ينطفئ لهب الغيرة رويداً رويداً في قلبها وتسلِّم بالأمر الواقع فتتقبل حقيقة أنك إلى جوار كونك ابنها المحبوب، فأنت أيضاً شاب له احتياجات نفسية وعاطفية لا تلبيها له إلا زوجة.. وبغير أن ينتقص ذلك من قدر أمه لديه ولا من حبه لها أو دورها في حياته..

فأما نصيحة الطبيب النفسي لك بألا تعارض في زواجها إذا رغبت في الزواج فإنني أؤيده فيها خاصة مع ما أشرت إليه في رسالتك وحذفته منها عند النشر.. كما أنه ليس من المستبعد أن تفكر هي في هذه الخطوة كعمل انتقامي «لخيانتك» لها بالزواج.. لكن تصوري أنها لن تمضي في الشوط إلى نهايته وأنها سوف تكتفي بالتهديد به كمحاولة يائسة وأخيرة لمنعك من الزواج.. والأمر الله من قبل ومن بعد في بعض أحوال النفس البشرية المتشابكة التي تستعصى أحياناً على الفهم والإدراك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ثمن الاختيار!

أكتب إليك بعد أن قرأت رسالة «تحية المساء» للسيدة الشابة التي روت قصة زواجها ممن أحبته منذ كان عمرها 17 عاما. ورفضه والدها بعنف.. واعتدى عليه بالضرب مرتين وعلى ابنته أكثر من مرة، فلم تتنازل عن حبها.. وأصرت على ألا تخرج على طاعة أبيها وألا تتزوج من فتاها إلا برضا أبويها ولو طال بها الانتظار إلى مالا نهاية حتى لان الأب في النهاية وقبل بمن اختارته بعد ست سنوات وسعدت بحياتها ونعمت بحب زوجها ورضا أبويها بالرغم من كل ما جرى..

فلقد ذكرتني هذه الرسالة الممتعة بقصتي.. فأنا شاب في السابعة والثلاثين من العمر نشأت في إحدى مدن الجنوب في أسرة متوسطة بين ثلاثة من الإخوة وفي كنف أب شديد القسوة في معاملة أبنائه ويطيع الجميع أوامره رضا أو رغما عنهم.. ولقد بدأت مشكلتي معه في سن مبكرة إذ كان لا يطيق أن يخالف أحد أبنائه أمراً له.. وكان من أوامره لنا أن نرجع من المدرسة للبيت مباشرة وألا نخرج منه بعد العودة أياً كان السبب.. وكانت مشكلتي أنني أحب ممارسة الرياضة، فكنت أخرج من المدرسة إلى مركز الشباب في مدينتنا لممارسة بعض الألعاب، وأرجع إلى البيت فيكون عقابي الضرب الشديد المبرح والحرمان من المصروف، وفي بعض الأحيان الطرد، فأذهب إلى بيت جدتي وأقيم فيه بضعة أيام وتستدعي جدتي ابنها أي والدي وتعاتبه على طرده لي فيسمح في النهاية بعودتي للبيت.. وتمضي حياتي هادئة بعض الوقت ثم لا يلبث نداء الرياضة أن يغلبني فتتكرر القصة بكل تفاصيلها من جديد.. وشيئاً فشيئاً وجدت نفسي منبوذاً من أبي وأمي التي تتضامن معه في كل شيء سواء أكان على حق أم على باطل، ومنبوذاً كذلك من إخوتي ربما لأنهم اعتبروني متمرداً.. وربما لأنهم جاملوا أبي بالتضامن معه في نبذي.. المهم أن الأيام قد مضت بنا وأنا أشعر أنني القط الأسود الذي ينفر منه أفراد الأسرة لكنهم لا يحرمونه بالرغم من ذلك من قوت يومه الضروري!

وحصل شقيقاي على الثانوية العامة، فجاء لهما أبي باستمارات مكتب التنسيق وكتب بنفسه الرغبات التي أرادها هو لابنيه وكانت في كليات محددة بالقاهرة لأنه كان يخطط لانتقال الأسرة كلها إليها بعد حصولي على الثانوية العامة خلال عامين.. وامتثل الابنان لرغبة الأب بحماس حقيقي أو ظاهري لا أعلم.. فاستأجر لهما شقة مناسبة في القاهرة وأغدق عليهما بالنقود والملابس والهدايا.. وانتظما في دراستيهما وأصبحا نجمي الأسرة اللذين يعودان في الأجازات فيُستقبلان بحفاوة كبيرة.. وتمد لهما الموائد الحافلة احتفالاً بقدومهما..

وبعد عامين حصلت على الثانوية العامة.: وجاءني أبي باستمارة مكتب التنسيق وكتب فيها «الرغبات» التي رآها كالعادة وأخذتها منه لتقديمها للمكتب لكني تجاسرت على خطوة رهيبة هي تغيير هذه الرغبات بما يتفق مع ميولي الدراسية وقدمتها للمكتب دون أن يعلم بما فعلت.. وجاء ترشيحي لكلية جامعية في الجنوب

فانفجر بركان الغضب من جانب أبي.. وحاول إثنائي عن رغبتي بكل وسيلة لكني تمسكت بها في أدب وإصرار في نفس الوقت.. فكانت النتيجة أن حرمني من الملابس والهدايا التي أحضرها لإخوتي عند الالتحاق بالجامعة، وتنبأ لي بالفشل المؤكد - فلم أعترض على شيء ولم أهتم أيضاً بما حرمت منه لأنه كان ثمناً متوقعاً لاختياري أن أدرس ما أريد وليس ما يريده أبي لي، وأمضيت سنوات الدراسة متفوقاً بالرغم من قلة ما كان أبي يرسله إلى من مصروف بالمقارنة بما يعطيه لإخوتي، وتخرجت في كليتي وأديت الخدمة العسكرية بسلام وقام أبي بتوزيع بعض ماله على إخوتى ليشقوا طريقهم في الحياة فحصل أخي الأكبر على نصيبه وسافر للعمل بإحدى الدول العربية كما كان يحلم لنفسه، وحصل أخي الذي يليه على نصيبه وتزوج به وأقام مع زوجته بإحدى المحافظات حيث يعمل. وتزوجت أختي وأنفق أبي على زواجها بسخاء كبير، ولم يبق سواي الذي لم يحصل على شيء.. وبدأت حياتي بالعمل في القطاع الخاص لكي أبني نفسي.. وبعد فترة من العمل اخترت شريكة حياتي من أسرة طيبة متوسطة الحال.. وفاتحت أبي برغبتي فاعترض عليها كالعادة، وأرادني أن أتزوج من ابنة أخته، وتمسكت باختياري فكان قراره هو أن أتحمل وحدي تبعات ذلك.. وتحملت بالفعل تبعات اختياري كما تحملت دائماً أقداري، وأثار شجوني أن صاحب العمل الذي أعمل معه كان أكثر حناناً بي من أبي في هذا الموقف الذي يحتاج فيه الشاب دائماً إلى أبيه ومساندته له..

وتزوجت زواجاً بسيطاً لا يتناسب مع ظروف أبي العائلية والمادية.. وأقمت في شقة صغيرة في حي عشوائي وأثثتها بأثاث قليل ورخيص، وسعدت بالرغم من ذلك بزوجتي وحياتي المتقشفة ولم أقصر في زيارة أبي وأمي وأداء واجبي تجاههما، وبعد عام من الزواج أنجبنا طفلة جميلة.. وأهدى إلينا بعض الأهل والأصدقاء هدايا ذهبية صغيرة احتفاء بالمولودة.. وبعد شهور مرضت الطفلة بنزلة معوية حادة والتهاب رئوي .. ولم تسمح لي إمكاناتي المحدودة بالإنفاق على علاجها كما ينبغي فتوجهت إلى أبي وطلبت منه في حياء أن يساعدني في نفقات العلاج.. فرفض قائلاً إنه ليس قادراً على المساعدة! وشعرت بمرارة شديدة وخجل أشد ورجعت من عنده مكسور القلب.. فأخذت زوجتي والطفلة وتوجهت إلى مستشفى «أبو الريش» للأطفال.. وقلت لنفسي إنه إذا لم تتسع لطفلتي رحمة أبي فلقد تتسع لها رحمة أطباء هذا المستشفى الجامعي.. وتم إدخال الطفلة للمستشفى على الفور لكن حالتها كانت متأخرة بسبب نقص العلاج في الفترة السابقة فتدهورت صحتها سريعا وتوفيت إلى رحمة الله بالمستشفى. وماتت أول فرحة لي ولزوجتي، وحزنت على هذه الطفلة البريئة وحزنت زوجتي حزناً مريراً مؤلماً.. وبالرغم من ذلك لم أنقطع عن أبي وأمي لكن الإحساس المؤلم بأن هذه الطفلة قد «قتلت» بسبب قلة النقود اللازمة للعلاج راح يقض على مضجعي.. واستعنت بالصبر والصلاة والأمل في رحمة أرحم الراحمين.. وبعد عام آخر أنجبنا طفلاً آخر خفف أحزاننا على الوليدة الراحلة، وفرحنا به كثيراً.. وبعد ولادته بشهور استدعيت للقوات المسلحة وكنت قد عينت في وظيفة حكومية.. ولم يكن معي من النقود ما يكفي للسفر إلى حيث وحدتي العسكرية ولا ما أتركه لزوجتى

خلال غيابي. فتوجهت لأبي وطلبت منه قرضا صغيرا ترده إليه زوجتي أول الشهر حين تقبض مرتبي في غيابي، ومنحني القرض وأعطيت بعض النقود لزوجتي وسافرت إلى وحدتي وجاء أول الشهر وتسلمت زوجتي مرتبي وفي نفس اليوم أصيب المولود الجديد بنزلة معوية شديدة وخشيت زوجتي أن تتكرر مأساة الطفلة الأولى فحملت الطفل لتذهب به إلى الطبيب فإذا برسول من عند أبي يطلب منها سداد القرض الذي اقترضته منه على الفور فتوجهت بالطفل المريض إلى بيت أبي ودفعت الدين، واتجهت إلى المستشفى وفحص الأطباء الطفل ووصفوا له العلاج لكن النقود كانت قد تبخرت ولم يعد لديها ما تشتري به الدواء فتذكرت زوجتي الحلي الذهبية الصغيرة التي أهديت للطفلة الأولى والتي تحتفظ بها كذكرى غالية لها.. فباعتها دامعة، لتنفق ثمنها على علاج طفلنا. واستجاب الله لدعائها فشفى الطفل ونجا من الخطر ورجعت من الاستدعاء فروت لي ما حدث.. بكل تفاصيله.. فتندت عيناي بالدمع.. وتساءلت بيني وبين نفسي ولماذا يا أبي هذه القسوة معي وحدي من بين كل إخوتي؟.. وقبلت طفلي وشكرت ربي كثيراً أنه حماه مما كان يتهدده..

وواصلت حياتي وعملي راضيا.. وصابراً.. وفي كل حين أزور أبي وأمي وأرعى شئونهما وألبي طلباتهما.. ولا أعاتبهما في شيء.. ووفقني الله بعد قليل للعمل في القطاع الخاص في الفترة المسائية بعد انتهاء عملي الحكومي.. فانتعشت أحوالي المادية بعض الشيء.. وبدأ.جفاف حياتنا يترطب ببعض الخير، فإذا بأبي يمرض مرضاً شديدا ويصاب بنزيف من دوالي المريء وبالسكر والكبد.. وإذا بي أبدأ معه رحلة العلاج الطويلة بين المستشفيات وفي البيت وأقيم معه بالمستشفيات أياماً كثيرة بين إجراء التحاليل، وبين الرعاية المركزة والعلاج.. وأنفق أبي على علاجه معظم مدخراته.. ولم يجد سواي إلى جواره أعتني به وألازمه في المستشفيات وزيارة الأطباء وفي البيت في حين اكتفى إخوتي بزيارات متباعدة وبالسؤال بالتليفون، ونتيجة لذلك فقدت عملي المسائي لعجزي عن ترك والدي.. ولم أحفل بذلك بالرغم من حاجتي إلى دخلي منه.. وتفرغت لأبي ونسيت كل ما كان من أمره معي.. وكيف لا أنسى وهو أبي سواء كان رحيماً بي أو قاسياً عليّ.. لقد توقفت في رسالة السيدة الشابة «تحية المساء» أمام المشهد الذي ارتمت فيه على صدر أبيها تقبله وتحتضنه وتشكره حين وافق في النهاية على زواجها ممن اختارته.. فبدت الدهشة على وجهه كأنه لا يصدق أن ابنته مازالت تحبه بالرغم من كل ما فعله بها ومعارضته لزواجها طوال ست سنوات.. وتذكرت أنني رأيت نفس هذه الدهشة المختلطة بالخجل على وجه أبي وأنا أخدمه في مرضه وأدعو له بالشفاء وأقول له إننا لا نساوي شيئاً بدونه.. ولقد كنت صادقا فيما شعرت به وعبَّرت عنه وكان هو يشعر بشيء من الاستحياء مني، والحمد لله فإني لم أقصر في واجبي تجاهه.. ورحل عن الحياة وهو راض عني تماماً. ولقد حزنت على وفاته كثيرا.. وشعرت لدهشتى بأننى قد أصبحت بلا سند في الحياة.. مع أنه لم يساعدني في حياتي.. والمشكلة الآن هي أن زوجتي تطالبني بالسفر للعمل بالخارج لتحسين أحوالنا التي لم تتغير كثيراً، وتأتينى من حين لآخر بفرص للعمل في الخارج عن طريق بعض أقاربها.. لكن والدتي قد أصبحت وحيدة الآن وليس

إلى جوارها أحد من أبنائها سواي ولا يقوم بشئونها غيري وإخوتي كلهم بعيدون بالسفر للخارج أو إلى محافظة أخرى.. وأنا في حيرة من أمري إذ إنني لو سافرت للخارج فلن يرعى أمي ولن يسأل عنها أحد.. وزوجتي تطالبني بأن أعمل ما في صالحي وصالح أسرتي كما يفعل إخوتي لمصلحتهم بالرغم من كل ما أعطاه لهم أبي وأمي دوني، وتقول لى إنهم جميعاً يعيشون حياة مريحة ومن حقي وحق أسرتي الصغيرة أن نتطلع لبعض الرخاء.. وأنا حائر بين إرضاء أمي وربي وبين حق زوجتي وأولادي في العيش الكريم بعد صبر طويل معي على حياة التقشف والجفاف.. فبماذا تشير عليَّ خاصة أن زوجتي من قراء بابك وتقتنع بآرائك؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا عجب في أن تبر أباك وتقف إلى جواره في مرضه وضعفه وشيخوخته بالرغم من كل ما كان من أمره معك في السنوات الماضية فالشاعر العربي يقول:

أفعال كل امرئ تنبى بعنصره

والعين تغنيك عن أن تطلب الأثرا

كما أننا لا نتعامل مع الأبوين بمبدأ المعاملة بالمثل الذي قد نتعامل به في الحياة مع الغرباء، وإنما نتعامل معهم بما أمرنا به الله سبحانه وتعالى من إحسان صحبتهما والرفق بهما لو جاهدانا على أن نعبد غيره.

فإن كان في رسالتك ما يستحق التأمل أكثر فهو أن يكون أقل الأبناء نيلاً لعطاء الأب ونهلاً من نبع حنوه وحنانه هو أرفقهم به وبأمه وأكثرهم حرصاً على أداء واجبه الديني والإنساني تجاههما.. غير أنه لا عجب في ذلك مرة أخرى لأننا لا نعطي أبوينا على قدر المغنم منهما.. وإنما بقدر ما تمليه علينا فطرتنا السليمة ووجداننا الديني وضميرنا الأخلاقي.

ولا شك في أن والدك قد أخطأ في حقك خطأ جسيماً حين حرمك من حقك المشروع في ماله.. ولم يسو بينك وبين إخوتك في العطاء..، وحين أشعرك بالنبذ طوال حياتك ومطلع شبابك.. وأيضاً حين رغب في فرض إرادته عليك في نوع الدراسة واختيار شريكة الحياة بغير أن يتيح لك أي مجال للمناقشة والاقتناع بما يراه هو من وجهة نظره خيراً لك.. فأما قبضه ليده عن مساعدتك حين كنت في أشد الحاجة إلى عونه لك لعلاج طفلتك الأولى.. فليس مما يغتفر لأي أب بل لأي إنسان في الوجود قادر على العون في مثل هذه الظروف المؤلمة.

لقد أمرنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن نعدل بين أبنائنا ولو في القُبل.. وبأن نعين أبناءنا على البر بنا بالرفق بهم والعدل معهم.

فبررت أنت بأبيك بالرغم من أنه لم يعنك كثيراً على ذلك بالعدل معك، ومن كان هذا شأنه مع أبيه الذي حرمه لا يستطيع في ظني أن يتخلى عن أمه الوحيدة التي

يرعاها في شيخوختها ويقوم بكل شئونها لكي يجرى وراء أمل غير مؤكد في العمل بالخارج.

ولا غرابة في ذلك فمن كان ابنا باراً بأبيه الذي قسا عليه لا يستطيع إلا أن يكون كذلك ابناً عطوفاً رحيماً بأمه التي لم تسهم في معاناته سوى بالعجز عن دفع الأذى عنه لضعفها أمام الأب القوي المسيطر. وفي تقديري أن عروض العمل في الخارج لا تتزاحم عليك الآن بالصورة التي توحي بها كلمات زوجتك لك، وإنما هو مجرد أمل أو حلم يراودها عند المقارنة بين حظك في الحياة وحظوظ إخوتك منها، فيثير هذا الصراع الذي لا داعي له بين واجبك تجاه أمك وبين حقك في الحياة والعيش الكريم.

فلتعفك إذن زوجتك من صراع لا جدوى منه الآن سوى المعاناة وإيغار الصدور وإثارة المرارة في نفسك تجاه إخوتك الذين شاءت لهم أقدراهم أن يعملوا ويقيموا في أماكن بعيدة عن مقر إقامة الأم، فإذا كانت أقدارك قد جعلت منك الابن الوحيد المقيم إلى جوار الأم في ضعفها ووحدتها فلأن السماء قد أرادت أن تهبك فضل رعاية الأم في شيخوختها لتضيف ذلك إلى سابق فضلك في رعاية الأب في مرضه وضعفه وتثقل بهما موازينك في الدنيا والآخرة.

وشمس الأم يا صديقي لا يطول إشراقها في السماء إلى مالا نهاية، وهي إن غابت لن تشرق على الدنيا مرة ثانية للأسف.

أما فرص العمل في الخارج والداخل فإنها تذهب وتجيء.. ولقد يأسى المرء على فرصة ضاعت فيجيء اختيار الله له بأفضل مما كان قد اختاره لنفسه وبكي على فواته، ورعاية الأم الوحيدة في الدنيا «جهاد» يجزي الله عنه صاحبه بما يجزي به المجاهدين في سبيله.. فلقد وضع الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه الجهاد عمن له أب شيخ أو أم عجوز لا يقويان على فراقه، وردّ من جاءه مجاهداً على غير إرادة أبويه الشيخين قائلاً له: ففيهما فجاهد!

وأنت تستطيع أن تعمل لصالح أسرتك وصالحك كما تطالبك زوجتك بغير أن يتعارض ذلك مع حق أمك عليك إذا أتيح لك العمل المسائي الذي يزيد من دخلك، أو إذا رجع أحد إخوتك للإقامة في القاهرة.. أو إذا كانت والدتك قادرة في النهاية على رعاية نفسها واحتمال وحدتها وظروفها وأذنت هي لك بالسفر بنفس راضية وليس عن حرج أو تضحية.

فاختر لنفسك ما تراها جديرة به.. فلقد دفعت ثمناً غالياً لتمسكك بأن تختار حياتك بإرادتك الحرة وليس بإرادة أبيك فيما أراد اختياره لك من قبل. ومن كان هذا حاله.. يعرف بالضرورة أن لكل اختيار تبعاته التي يقبل بها راضياً ويتحمل عناءها..

وما أحسب إلا أنك سوف تختار ألا تتخلى عن والدتك في ضعفها وشيخوختها وأن تنتظر جوائز السماء العادلة لك على هذا الاختيار وعلى برك بأبيك وحسن مصاحبتك له من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الذكريات السعيدة!

شاءت لي أقداري أن أحتاج إلى مشورتك، وقد كنت أظن من قبل وبالرغم من مداومتي على قراءة بابك أن المرء العاقل المثقف أقدر دائماً على فهم جوانب مشكلته وحلها الحل المناسب من غيره.. وهاقد أثبتت لي الأيام خطأ ظني .. ووجدتني عاجزاً عن اتخاذ قرار بشأن حياتي وأحتاج إلى مشورتك فيها.

فأنا مهندس تجاوزت الثامنة والأربعين من عمري بشهور.. كنت أعيش مع زوجتي الأستاذة الجامعية.. وابني الطالب بالسنة الأولى بكلية مرموقة - حماه الله - وابنتي الطالبة بالسنة الأولى الثانوية.. أخرج إلى عملي بشركة أجنبية بالمدينة الساحلية التي نقيم فيها في الصباح، فيأخذ عملي كل وقتي ولا أرجع إلى البيت إلا في المساء، فأسعد بأسرتي الصغيرة المتحابة ونجلس للعشاء نتبادل الأحاديث العذبة عما حدث لي ولأفراد الأسرة خلال يومنا.. وأدع شئون البيت والأسرة كلها لزوجتي تديرها بحكمتها كيفما تشاء من مأكل وملبس ونزهات ودروس للأبناء.. وتستشيرني فيما يعرض لها من أمور فأوافق غالبا على رؤيتها.. وأقوم بالإنفاق.. وتتولى هي التنفيذ.. وهي قوية الشخصية وعنيدة في طلباتها ولا تلين بسهولة إذا اقتنعت برأي..

أما في المساء فهي زوجتي وحبيبتي وسكني وراحتي.. ومضت بنا الأيام بحلوها ومرها وأدينا فريضة الحج معاً قبل سبعة أعوام.. ورحل أبي عن الحياة وقد كان نعم السند والمشير - يرحمه الله - فحزنت لفراقة كثيراً.. وحججت عنه في العام التالي.. ورجعت من الحج وأنا أكثر حباً وتعلقاً بزوجتي فصارحتها بأن فترة بعدي عنها قد أكدت لي عمق تعلقي بها وعدم قدرتي على فراقها ورجوتها مازحاً ألا تستغل في هذا الضعف تجاهها.. وتوالت الأيام رخية هانئة.. وحقق ابني وهو قرة عيني وعين والدته أملنا في التفوق في الثانوية العامة.. والالتحاق بنفس الكلية العملية المرموقة التي تخرجت فيها أمه.. وتبعته أخته على طريق التفوق وهي شديدة التعلق بأمها إلى حد أن كانت لا تنام في كثير من الأحيان إلا بجوارها.. وحتى كنت أمازحها قائلاً لها إنها تحرمني بذلك من زوجتي وحبيبتي.

والدنيا جميلة.. وزوجتي في قمة صحتها وتألقها وجمالها تنتظر في شوق الترقية إلى وظيفة أستاذ بكليتها.. والأيام قد لانت لي فتحسنت أحوالي المادية والعملية.. ونحن نقيم في شقة جميلة بعمارة يملكها أبي رحمه الله.. وقد طلب مني قبل رحيله عن الدنيا وعداً مني له بألا يدخل عمارته غريب عنا.. حيث لا يقيم فيها إلا الإخوة ولكل منهم إلى جانب شقته شقة إضافية لأبنائه في المستقبل.

ومنذ ثلاثة أشهر وقفت زوجتي أمامي تضحك وتتحدث عن المستقبل والمكان الذي سنقضي فيه إجازة الصيف المقبلة.. وعن زميلة لها مصابة بالمرض اللعين وتستعد للسفر إلى لندن للعلاج وإجراء الفحوص.. وفجأة وجدتها تجلس على المقعد وهي لا تستطيع التنفس.. وتقول لي إن قلبها يتوقف. ثم تنطق بالشهادتين.. وتغيب عن الوجود الغياب الأبدي.. وكل ذلك في 5 دقائق فقط وأنا لا

أصدق ما يجري أمامي.. ولا أملك لها نفعا.. ولا أستطيع أن أدفع عنها هذا الزائر الغامض الذي قوض سعادتي وسعادة أسرتي واختطف زوجتي أمام عيني..

وزلزل الحدث كياني كله وشعرت بيأس شديد من كل شيء، وأدركت أن الحياة ما هي إلا لهو ولعب وزينة ثم لا شيء بعد ذلك.. وتماسكت ظاهرياً أمام الناس وأبنائي.. ورحت أدعو لزوجتي الراحلة في صلاتي وأناجي ربى بالدمع أن يرضيها ويرضى عنها ويدخلها جنته ويجمعني بها في مستقر رحمته بإذن الله مصداقاً لقوله تعالى: (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ).

والآن فإنني أواجه الحيرة فيما أصنع بنفسي وحياتي بعد غياب زوجتي عني .. فابني كبير بما فيه الكفاية ويستطيع أن يكمل مشواره بإرشاد بسيط من جانبي.. أما ابنتي فلا تزال تحتاج إلى الرعاية وأحاول الآن بكل جهدي أن أملأ فراغ أمها في حياتها.. والأسئلة الحائرة التي تتردد داخلي الآن هي: هل أعيش لابنتي وابني حتى التخرج وزواج كل منهما وسوف يستغرق ذلك عشر سنوات تقريبا.. فيكون عمري حينئذ 58 عاماً.. فأعيش من بعدهما وحيداً أجتر ذكريات السعادة القديمة؟ أم هل أبحث عن زوجة لي تكمل معي مشوار الحياة فتكون زوجة أب لولدي وابنتي وما أدراك ما زوجة الأب خاصة بعد أن تنجب؟

أم هل أتزوج مطلقة لا تنجب مني فنتقاسم معاً بقية العمر وتكون أماً ثانية لأبنائي وأكون أباً آخر لأبنائها؟، وإذا فعلت ذلك فهل يكون الزواج في شقتي الحالية التي شهدت رحلة العمر مع زوجتي الراحلة.. أم في شقة خارجية.. لتكون زوجة الأب بعيدة عن أبنائي؟ إنني لا أعرف أي طريق أسلكه ولا أين أجد الزوجة الملائمة لي خاصة أن عملي بعيد عن الاختلاط بالناس، مما يجعل الاختيار والمفاضلة أمرين شبه مستحيلين؟

أرجو النصح والإفادة.. وشكراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

كلنا في حاجة إلى مشورة الآخرين في أمورنا يا صديقي.. غير أن هدوء الموج قد يوهمنا في بعض الأحيان أننا في مأمن من العواصف .. فإذا اضطرب البحر فجأة فزعنا بسفننا إلى المرافئ نلتمس فيها الأمان .. ونستعين بتجارب الآخرين وخبرتهم على اختيار المسار الآمن لها عند مواصلة الرحلة من جديد.

ولا شك في أنك تقف الآن في مفترق للطرق يتطلب منك الحكمة والرشاد في اختيار المسار الجديد لسفينة حياتك وحياة ابنتيك خلال المرحلة المقبلة من العمر.. غير أن آثار العاصفة التي زلزلت أركان حياتك لم تزل قريبة في الأفق.. ولم يمض بعد الوقت اللازم لاستيعاب ما جرى وترميم ما أتلفته العاصفة في نفوس ركاب الرحلة.. قبل التهيؤ لاستئنافها من جديد. واتخاذ قرار متعجل الآن بشأن حياتك سوف يكون متأثراً غالباً بحالة الفراغ العاطفي والإنساني الكبير الذي

تعانيه حاليا بسبب الغياب المفاجئ لشريكة العمر، وقد يقودك التعجل فيه إلى مهاوي سوء الاختيار لنفسك أو لأبنائك... لهذا فإن نصيحتي المخلصة لك هي أن تمنح نفسك أولاً الوقت الكافي لاسترداد سكينة النفس والقلب وصفاء التفكير بعد الصدمة المزلزلة التي اعترضت حياتك، ثم تبدأ بعد فترة النقاهة النفسية الضرورية، التفكير في مستقبل أيامك.. ذلك أنك سوف تحتاج أول ما تحتاج إلى إشراك ابنيك معك في الاختيار لحياتك المقبلة.. لكي يكون قرارك بشأنها مقبولاً منهما ويتمتع بتأييدهما له..

ومفاتحتك لابنيك الآن وبعد ثلاثة أشهر فقط من رحيل أمهما عن الحياة في أمر مستقبل حياتك بعدها.. قد يصدم مشاعرهما ويتعارض لديهما مع الاحترام الواجب لذكرى الأم الغالية.. أما حين تمضي الفترة الكافية.. ويلمس الابنان معاناتك لوحدتك.. واحتياجك الإنساني لمن تعيد إليك الإحساس بالأمان والثقة في المستقبل.. ويلمسان كذلك أثر افتقاد دور ربة الأسرة في حياتهما الشخصية.. فلسوف يكونان مهيأين نفسياً وإنسانياً لبحث الأمر والتداول معك فيه.. ولقد يترفقان بك ويحثانك على التماس السلوى والعزاء عن وحدتك في رفقة جديدة للحياة.. وفارق كبير بين أن يجيء الاقتراح من جانبهما رفقاً بأبيهما وحباً له، وبين أن يضعهما الأب في مثل هذا الحرج الإنساني بعد ثلاثة أشهر فقط من مغيب شمس أمهما عن الحياة..

وحين يجيء الأوان للاختيار فقد يكون من الحكمة أن تدع القرار بشأن «شكل» الحياة الزوجية المقبلة لك لابنيك بالتشاور معك.. فتعرف منهما هل يقبلان بأن تحل سيدة أخرى محل أمهما في حياتك وحياتهما ويرجع شكل الأسرة الكامل إليهما.. أم يفضلان لك ولنفسيهما أن تكون لك حياة زوجية مستقلة عنهما وفي مسكن آخر بعيد عن موطن ذكريات الأم الراحلة؟

ولقد تكون البداية التي يفضلانها الآن هي الحياة الزوجية المستقلة لك في مسكن آخر مادمت قادراً على ذلك، ولقد يكون العكس.. أو قد تكون البداية «مستقلة» ثم لاتلبث شخصية الزوجة المقبلة إذا كانت رحيمة وحكيمة أن تجتذبهما إليها حتى ليفضلا أن تشاركهما الحياة وتعوضهما عن دور الأم الغائب في حياتهما.. وفي كل الأحوال فإن حسن الاختيار كفيل بتفادي كل الأشواك والهواجس التي تراودك الآن بشأن زوجة الأب المقبلة، وكم من زوجات للأب كن نعم التعويض النفسي للأبناء الذين حرموا من أمهاتهم.. وكم من غيرهن أيضاً قد ضاعفن من شعور الأبناء بفداحة خسارتهم لأمهم.. غير أن الفضليات كثيرات وخير الزيجات في مثل ظروفك الحالية هي من قدمت الحل الملائم لمشكلة الطرفين معاً.. وليس لمشكلة طرف على حساب طرف آخر.. وفي ذلك فلقد تكون المطلقة أو الأرملة القريبة منك في العمر والظروف العائلية والاجتماعية هي أفضل الاختيارات المرشحة للنجاح والاستمرار.. والقبول من الأبناء.

أما الانتظار لعشر سنوات حتى يتخرج الابنان ويتزوجا.. فليس من الحكمة في شيء لأنك لن تطيقه.. وأنت الذي يؤرقك الآن بحث مستقبل حياتك بعد ثلاثة أشهر من رحيل الزوجة الغالية.

والأوفق هو أن تصبر على ظروفك بعض الوقت ثم تختار لحياتك ما يعيد إليها السعادة والأمان بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السنوات الضائعة!

أنا سيدة أقترب من الأربعين، نشأت في أسرة متوسطة الحال وكنت الابنة الوحيدة بين إخوة لأب وأم طيبين ويتعاملان مع الحياة بلا خبث ولا التواء. ولأنني الابنة الوحيدة فلقد تمتعت بشيء من التدليل من جانب أبي وأمي ووقفت أمي إلى جواري حتى أنهيت تعليمي الجامعي وعملت.. وكنت كغيري من الفتيات أنتظر منذ وقت طويل فارس الأحلام الذي سيجيء راكباً سيارة فاخرة ويقيم في فيلا فخمة لكي يخطف قلبي وأعيش معه في سعادة وهناء.. واستغرقت في أحلام اليقظة فطال انتظاري دون أن يجيء هذا الفارس المنتظر، ورفضت بسبب خيالي المريض هذا كل من تقدموا لي لغير أسباب جوهرية في شخصياتهم.. وفي كل مرة أرفض فيها عريساً تبكي أمي بحرقة وترجوني هي وأبي أن أقبل لكيلا يتأخر بي العمر دون زواج.. وكان من بين من رفضتهم صديق لأخي الأكبر، وكان سبب رفضي له أنه موظف محدود الإمكانات ولا تتوافر فيه صفات فارس الأحلام من مسكن فاخر وسيارة فارهة ورصيد في البنك. فمضى بي العمر حتى بلغت سن الثلاثين دون زواج، ثم جاء أخي ذات يوم وأبلغني أمام أبي وأمي أن صديقه الذي سبق له أن تقدم لي قبل ست سنوات لم يوفق في الزواج ويريد أن يتقدم لي من جديد.. فراح أبي وأمي يضغطان عليّ لقبوله ويهددانني بأن يغضبا عليّ حتى الموت إن لم أستجب لهما.. وشاركهما إخوتي الرجال في ذلك والتهديد بالمقاطعة إذا رفضت.. وإزاء هذا الضغط الشديد قبلت بالزواج من هذا الصديق وأنا كارهة له.. وتم الزواج في وقت قصير، حيث كان يملك شقة كاملة الأثاث بالرغم من ضعف إمكاناته.. وانتقلت إلى عش الزوجية بعد أسابيع قليلة.. وبدأت حياتي الزوجية معه بلا حماس ومضت أيامنا وشهورنا الأولى وأنا كارهة لزوجي لا أتحدث معه إلا نادرا ولا ألبي طلباته.. ولا أتجاوب معه في شيء.. ولا أحفل بشيء يسعده ولا أحزن لشيء يؤلمه.. ولا أشاركه مشاعره وأحلامه وأفكاره.. ولا أجامله في أي شيء بل أثور عليه بعصبية شديدة كلما دعاني لذلك داع مهما يكن تافهاً.. في حين يرد عليّ هو بهدوء شديد.. ويحاول الاعتذار عما أغضبني وإن لم يكن قد أخطأ في شيء.. ولاحظت أمي جفاء معاملتي له ونصحتني بإحسان عشرته.. فلم أستجب لها وكان من الطبيعي أن يتأكد زوجي من كراهيتي له.. ويضيق بسوء معاملتي معه.. ويفقد صبره عليّ ويطلقني بعد بضعة شهور، لكنه لم يفعل ولم يشك من سوء معاملتي لأحد من أهله أو أهلي.. بل كان يثني عليّ ويشيد بأخلاقي.. ثم شاءت إرادة الله أن حملت بمولودي الأول.. وبدلاً من أن أسعد بحملي كما تفعل كل النساء فقد شعرت بالحزن والاكتئاب وحاولت إجهاض حملي ببعض الحيل المألوفة في هذا الشأن.. فلم تنجح محاولاتي .. واستسلمت لمصيري وجاء مولودي في موعده طفلاً جميلاً، فسعد به زوجي سعادة طاغية ورأيت فرحته الطفولية به فرق قلبي له لأول مرة.. وبدأت ألاحظ طيبة قلبه وحنانه ورقته.. وسألت نفسي لماذا قسوت عليه وجفوته على هذا النحو لمدة عامين كاملين ولغير سبب سوى أن أحلام يقظتي السابقة لم تتجسد فيه؟ وماذنبه هو في هذه الأمنيات والأحلام التي قد تراود أية فتاة.. وقد جاءني يطرق بابي من

الطريق المشروع وقبلت به وشاركته حياته؟ وبدأت أغير طريقة تعاملي معه وأستجيب لطلباته.. وبدأت أستمع إلى حديثه وذكرياته وآرائه وأحلامه فإذا بي أكتشف في حديثه متعة عجبت لنفسي كيف لم أكتشفها من قبل وإذا بي أكتشف فيه إلى جانت طيبة قلبه ورقته، رجاحة العقل والرأي الصائب.. وأنه موضع احترام كل من يتعاملون معه وموضع ثقتهم..

وتغيّرت نظرتي إليه تغيرا كاملاً.. وشعرت بسعادة جميلة في الحياة معه لم أستشعرها من قبل.. وأصبحت الأوقات الثقيلة التي كانت تمضي بي وهو في البيت أوقاتاً سعيدة وخفيفة.. وأصبحت لا أطيق البعد عنه لفترات طويلة بعد أن كنت أفتعل الأسباب للخروج وحدي ولرفض خروجه معي أو لقضاء بضعة أيام في بيت أهلي..

وسألته ذات يوم ونحن في لحظة صفاء لماذا صبر عليّ طوال فترة مجافاتي له ولم يطلقني؟، فأجابني بهدوء بأنه يحبني منذ تقدم لطلب يدي لأول مرة قبل سنوات.. وأنه كان واثقاً بالرغم من جفائي له من طيبتي وأخلاقي ويأمل في أن أتغير للأحسن مع الأيام.. فلم أتمالك دموعي، وشعرت بالندم لرفضي له في المرة الأولى قبل سنوات ولمجافاتي له بعد الزواج. وأقبلت على حياتي معه بكل الحب والإخلاص والرغبة في السعادة. وأنجبت منه طفلة ثانية.. واختفت المشاجرات والخصام من حياتنا نهائياً.. وسعدت أمي وأبي بسعادتي واستقرار حياتي سعادة قصوى.. ثم رجع زوجي من عمله ذات يوم مجهداً فسألته عما به فأجابني بأنه مجرد إرهاق سوف يزول بعد الراحة.. وبالفعل استسلم للنوم ساعتين ونهض.. وتكررت بعد ذلك نوبات الإجهاد والإرهاق من حين لآخر، وكلما ساورني القلق وسألته عما يحس به طمأنني إلى أن كل شيء على ما يرام وليس هناك ما يدعوني للقلق.. واستمر الحال على هذا النحو حوالي عامين.. ثم تسارعت الأحداث أمامي وأنا مشدوهة لا أصدق ما يجري .. فلقد تكررت الأزمات وتقاربت.. وهو يصر على أنه لا يعاني شيئاً سوى الإرهاق، ويشغلني عن الحديث في هذا الأمر بمداعبتي.. ومداعبة الطفلين والحديث عن أمنياته لهما في المستقبل إلى أن جاء اليوم الذي استسلم فيه للمرض فجأة ونقل إلى المستشفى وأمضى به أسبوعين، ثم انطفأت شمعته ورحل عن الحياة بعد سبع سنوات من زواجي منه.. وانهرت أمام الكارثة انهياراً تاماً وأصبت بحالة اكتئاب شديدة، وتمالكت نفسي بصعوبة لكي أرعى الطفلين اللذين وهبهما لي الله من هذا الإنسان.. وأرى فيهما ملامحه الطيبة وروحه النبيلة..

وفسّر لي أخي الأكبر بعد ذلك ما استعصى عليّ فهمه من هذه الأحداث المؤلمة، فقال لي إن زوجي قد أصيب بأزمة صحية ذات يوم منذ عامين وفحصه الأطباء فاكتشفوا إصابته بمرض خطير وتأخر حالته، وأنه راح يتداوى من دائه ويتردد على الأطباء والمستشفيات ومعامل التحاليل وهو يتكتم عني مرضه لكيلا أنزعج أو أشعر بالقلق والخوف من المستقبل.. إلى أن هزمه المرض في النهاية وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً يرحمه الله.

فهل رأيت يا سيدي إنكاره لذاته حتى وهو في أشد حالات الألم والمرض والمعاناة؟

إنني لا أعترض على قضاء الله وقدره.. لكني حزينة على فترة العامين التي جافيت فيهما المرحوم زوجي وكرهته بلا ذنب جناه.. وأسأت معاملته.. وجفوته..

بل إنني حزينة على السنوات التي أضعتها من عمري حين رفضت قبوله زوجاً لي قبل أن أرتبط به بست سنوات.

وأتساءل الآن: ماذا لو كنت قد قبلت به.. وعشت معه في سعادة وأمان إلى أن اختاره ربه إلى جواره؟.. ألم أكن قد أضفت بذلك إلى سنوات السعادة القليلة التي عشتها معه ثمانية أعوام كاملة؟

أولم تكن هذه السنوات الإضافية من السعادة قد أصبحت لي الآن زادا جديداً يعينني على احتمال الحياة؟

إنني أنصح كل فتاة بأن تتواضع بشأن فارس الأحلام الذي تنتظره.. وأن تتخلى عن التكبر والغرور فقد تكتشف السعادة مع أبعد الأشخاص عن نموذج فارس أحلامها.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

زوجك الراحل يا سيدتي واحد من هؤلاء الأشخاص الذين يعبرون الحياة كما تعبر النسائم الرقيقة بالوجوه في حر يوم قائظ فتلطف من إحساسها بالهجير، وتترك وراءها أطيب الأثر.. وأمثال هؤلاء الأشخاص يتسمون غالباً بإنكار الذات والصبر على المكاره وقلة مطالبهم من الآخرين ومن الحياة، وتقبلهم لأقدارهم فيها بلا سخط ولا أنين، كما يتسمون كذلك بتطلعهم المحروم غالباً للسعادة.. ورغبتهم في إسعاد الآخرين وتسامحهم مع الحياة فيما ضنت به عليهم وبالقدرة على العطاء للغير والرفق بهم.

ومن أسف أن عبورهم بالحياة يكون سريعاً متعجلاً في كثير من الأحيان ولو طال بهم المقام لزادوا من مساحة الحب والخير والجمال فيها، وقللوا من مساحة القبح والشر والمعاناة.. لكن متى استقر طيف عابر في مكان واحد؟

فإن كان ثمة ما يستحق الحزن عليه بالفعل.. فهو أننا قد «نجهل» في كثير من الأحيان أقدار هؤلاء الأشخاص وهم بين ظهرانينا..

ولا نكاد نكتشف جمال أرواحهم وأنس عشرتهم حتى تكون شمس حياتهم قد آذنت بالمغيب.

ومن خطايا الإنسان في حق نفسه وحق الحياة على السواء أنه كثيراً ما يجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة له.. ويضرب في الصحراء باحثاً عنها! وأنه قد

يحتاج في بعض الأحيان إلى من «يجبره» على السعادة المتاحة له كما فعل معك أبواك وإخوتك حين ضغطوا عليك بشدة لقبول هذا الزوج المضحي بعد أن رفضته أكثر من مرة.

وقديماً قال المفكر الفرنسي مونتسكيو إنه ليس هناك شخص لا يزوره الحظ السعيد ولو مرة واحده في حياته، غير أنه إذا لم يجده على أهبة الاستعداد لاستقباله فإنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة، ولقد زارك الحظ السعيد حين تقدم إليك هذا الرجل مرة ثانية ولولا أن ضغط عليك أبواك لقبوله بعد أن طال بك انتظار فارس الأحلام لما عرفت السعادة الحقيقية في حياتك الزوجية ولولا أن صبر عليك زوجك بطبيعته المضحية الراضية بالقليل من الحياة ومن الآخرين لما أتيح لك أن تكتشفي جمال شخصيته وعمق حبه لك، فتتفتح له مسامك ومشاعرك بعد إغلاق، ولما اكتشفت فيه كذلك بعين المحب كل ماخفي عليك من قبل وأنت تنظرين إليه بعين الكاره المتأفف خلال عامي الجفاء في بداية الزواج.

فإذا كانت السعادة قصيرة في حياتك كما هو الحال في بعض الأحيان.. فإن عزاءك عن ذلك هو أنها كانت حقيقية وصادقة.. تثري القلب والوجدان.. ولسوف تكون زاداً معنوياً لك يعينك على الصمود لتجربة الأيام، ومن مفارقات الحياة المؤلمة أنها قد تكرر في بعض الأحيان ما شكا منه المتنبي حين قال:

تفضلت الأيام بالجمع بيننا

فلما حمدنا لم تُدمنا على الحمد

لكن ماذا نفعل يا سيدتي فيما قضت به المقادير وماذا نملك سوى الامتثال لأقدارنا.. والرضا بها.. والتعزي عن آلام الحياة بذكريات السعادة الحقيقية.. والتمسك بالأمل في رحمة الله؟.

إنني أشكرك على رسالتك التي تحذر الفتيات من الاستغراق في أحلام اليقظة.. والتكبر والغرور، وأرجو أن يستفيد الجميع بتجربتك في إهدار بضع سنوات ثمينة من العمر في التكبر على السعادة و «الجهل» بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية الطريق!

أكتب لك قصتي لعلى أجد لديك الحل الملائم لمشكلتي، فأنا سيدة في الأربعين من عمري على قدر من الجمال والثقافة وقد تزوجت وأنا صغيرة السن وأنجبت وعشت مع زوجي في سعادة تامة لمدة عشر سنوات إلى أن رحل عن الحياة فكانت صدمتي فيه كبيرة نظراً لرومانسيتي.. وانتابني الحزن الشديد واحتضنت أبنائي وأفضت عليهم من حبي وحناني حتى وصلوا إلى المرحلتين الإعدادية والثانوية، وخلال ذلك رفضت كل من تقدموا لي لأن أبنائي كانوا صغاراً وفي أشد الحاجة إليّ.. وقد بدأت مشكلتي التي أكتب لك بشأنها منذ عام تقريباً إذ إن لي زميلة بالعمل أعتبرها أختاً لي وصديقة لعمري وزوجها يعمل معنا في نفس المكان. ومنذ عام وجدت زوج صديقتي هذه يتقرب إليّ ويدعوني للكف عن الحزن والتفتح للحياة من جديد بعد مرور تسع سنوات على رحيل زوجي، ويقول لي إنني يجب أن أفكر في أمري لأن أبنائي ذكور وسوف يكون لكل منهم حياته الخاصة وسيتركونني في النهاية وحيدة، وأنا مازلت جميلة وكل من يزاني لا يصدق أنني أم لهؤلاء الأبناء.. كما أنني أحتاج إلى رجل يقدرني ويقدر جمالي وثقافتي وتفكيري!

ووجدت كلامه صحيحا! أما المفاجأة فهي أنه قد عرض عليّ الزواج، فسارعت برفض طلبه لأن مبادئي لا تسمح لي بخيانة صديقتي. لكنه لم ييأس.. ولم يكل أو يمل الإلحاح عليّ بطلبه، وأنا أقاوم بكل ما أوتيت من قوة وقدرة على الرفض ورفضي له يزيده إصراراً على طلب الزواج مني ويقول إنه مستعد أن يعلن للجميع رغبته هذه.. وأنا أدعو الله في صلاتي أن يقدرني على نفسي ويهبني القوة على الاستمرار في مواجهة ذلك الزميل.. لأنني أخاف الله وأخشى دعاء المظلوم ولا أريد أن أظلم صديقتي، وأسأل الله أن يقيني شر نفسي.. فماذا تقول لي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لقد «خنت» صديقتك المقربة بالفعل ياسيدتي بسماحك لزوجها بأن يُطري جمالك وثقافتك وفكرك وينصحك بالتفتح للحياة من جديد مما شجعه على أن يتقدم إليك بطلب الزواج منك.. فالخيانة درجات ومراتب.. ولقد خطوت خطوة أو خطوتين على طريقها بالاستماع إلى هذا الإغراء من زوج صديقتك التي تعتبرينها أختاً لك وصديقة عمرك.. والسكوت عليه.. والاستنامة له، أما أقصى درجاتها فلم تصلي إليها بعد بقبول الزواج من زوجها والحمد لله.. ولو لم تكوني رافضة للعبث من الأصل لما احتاج هذا الرجل لأن يطلب منك الزواج.. ولكان طريق الإطراء قد قادكما معاً للتورط فيما لا ترضينه لنفسك، والمثل الأمريكي يقول: لا يشتري الرجل بقرة إذا كان يحصل على اللبن مجاناً!، ولأن همسه المسموم لك لم يتح له

الحصول على اللبن المأمول بلا ثمن فلقد عرض عليك الزواج.. وزاده رفضك له إلحاحاً عليك لكيلا يشعر بالفشل وخيبة الرجاء.

وكل ذلك مما يتعارض مع حقوق الصداقة والأخوة التي تفرضها عليك صداقتك لزميلة العمل هذه، والشاعر العربي القديم أبو العتاهية يقول:

صديقي من يقاسمني همومي

ويرمي بالعدواة من رماني

ويحفظني إذا ماغبت عنه

وأرجـــــوه لنائبة الزمـــان

وليس من قبيل حفظ الصديقة في غيابها أن تسلمي أذنيك لزوجها لكي يفح فيهما فحيحه المسموم بهدف أن يحقق مأربه منك بغير الزواج إذا استطاع.. وبالزواج إن لم يكن منه سبيل.

لقد كان أمير المحدثين أبو سفيان الثوري يقول: أول العلم: الصمت ثم الاستماع إليه ثم العمل به!

ولقد أستطيع أن أقول مستهدياً بهذه العبارة الحكيمة: إن أول الغواية الصمت عليها ثم الاستماع إليها.. ثم الاستجابة لها.

فسدي أذنيك عن سماع همس هذا الزميل المسموم لك لكيلا تضعف مقاومتك في النهاية.. فإطراء جمال المرأة هو أول طرقة على حديدها الساخن لكي يلين.. وقديماً قال أحد الحكماء متحديًا زملاءه:

أستطيع أن أحوّل هذا الإنسان العاقل إلى مجنون خلال فترة قصيرة.. فقيل له: كيف؟ فقال: بمدحه والإلحاح عليه بالمدح حتى يفقد عقله واتزانه!

وليس هناك على أيه حال رجل يستطيع الإلحاح على امرأة برغبته فيها عاماً كاملاً لو كان قد ووجه بالرفض القاطع والاستنكار الشديد لهذه الرغبة بما لا يدع له أي أمل في إضعاف مقاومتها ذات يوم.

فإذا رغبت في الزواج ياسيدتي فإنك تستطيعين أن تتزوجي بغير أن يقترن زواجك بخيانة أقرب الصديقات لك ولا بتأنيب الضمير لك على خيانتك لها.

أما بقاء الحال على ماهو عليه فلن يؤدي إلا إلى ضعف مقاومتك ذات يوم قريب أو بعيد، فاقطعي الطريق على هذا الرجل بشكل صارم.. وتجنبي انفراده بك وحديثه إليك بكل حسم حتى ولو أدى ذلك إلى تباعدك عن هذه الصديقة.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الشاعرة الجريحة!

أنا شابة أبلغ من العمر 19 عاماً نشأت في أسرة مكونة من أم طبيبة وأب يعمل بالحكومة وشقيقين وشقيقة.. وحين كان عمري عاماً واحداً ارتفعت درجة حرارتي بشدة وتوجه بي أبي وأمي إلى المستشفى وأعطاني الأطباء حقنة خاطئة أدت إلى ارتخاء الأعصاب عندي بحيث فقدت القدرة على المشي إلا بمساعدة الغير، ثم هاجر أبي إلى أمريكا بعد ذلك بسنوات لكي يعالجني فيها وأجريت لي جراحتان في غاية الخطورة نجوت منهما والحمد الله، وعشت حياتي بعد ذلك بطريقة شبه طبيعية، وواصلت تعليمي حتى التحقت بالجامعة في أمريكا، ومنذ أربعة شهور تقدم شاب مصري مقيم بالولايات المتحدة لخطبتي.. ولم يرحب به أبي.. غير أن أمي وأنا ضغطنا عليه حتى قبل به. وتمت الخطبة.. ولم أكن سعيدة بها وشعرت شعوراً غامضاً بأن خطيبي هذا ليس هو الإنسان الذي أستطيع الحياة معه تحت سقف واحد، لكني كذبت مشاعري التي تصدقني الحس دائماً، وبعد شهرين من الخطبة حصل خطيبي على وظيفة ممتازة بمرتب جيد بعد أن كان يعمل عملاً صغيراً في جراج للسيارات، وبعد ذلك بقليل جاءني ليقول لي إن أهله يعيرونه بي لأنني معوقة، ثم تم فسخ الخطبة، وبالرغم من أنني لم أكن أشعر بالارتياح لهذا الشاب من البداية إلا أنني قد صدمت صدمة شديدة في تصرفه معي.. وشعرت بالإهانة والجرح الشديد لمشاعري.. ولا أستطيع نسيان ذلك حتى الآن.. إنني إنسانة متدينة جداً والحمد الله.. وراضية بأقداري، لكن جرح المشاعر شيء مؤلم، فلماذا يجرح البعض مشاعر الآخرين بهذه القسوة ياسيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

في أقصوصة شهيرة للأديب الفرنسي أناتول فرانس كلّف الملك الشاب علماء بلده أن يكتبوا له تاريخ البشرية لكي يطلّع عليه، فاعتكفوا لمدة سنوات ثم رجعوا إليه ومعهم أحمال ضخمة من المجلدات. واستهول الملك الشاب أن يقرأ كل هذه الكتب فطلب منهم اختصارها فعكفوا عليها سنوات أخرى ورجعوا إليه ببضعة مجلدات كبيرة. لكنه لم يجد الوقت الكافي أيضاً لقراءتها وطلب منهم من جديد إعادة اختصارها.. فتقدم منه أحد العلماء قائلاً له: سألخص لك تاريخ البشرية في كلمات قليلة:

يولد الناس.. ويتألمون.. ويموتون!

ثم حمل مجلداته الضخمة وانسحب مع زملائه من مجلس الملك، وبعد سنوات أخرى جاء الكاتب الأمريكي الساخر مارك توين فأجرى تعديله الخاص على هذه العبارة الموجزة وقال:

يولد الناس ثم يجبرون بعضهم البعض على الألم.. ثم يموتون!

ولقد تذكرت عبارة مارك توين المريرة هذه.. وأنا أقرأ رسالتك لأن معظم آلام الإنسان هي من صنع البشر بالفعل.. وهذا الشاب الذي جرح مشاعرك كان يستطيع أن يتنصل من ارتباطه بك بأية حجة أخرى لا تؤلم مشاعرك.. ولا تترك هذا الأثر الغائر في نفسك، لكن ماذا نستطيع أن نقول عن ولع بعض البشر بإيلام غيرهم!

إنني أدعوك أيتها الفتاة الشابة إلى عدم التوقف أمام هذا الحدث العارض في حياتك والتجاوز عنه.. والثقة في نفسك وفي جدارتك بأن تكوني ذات يوم قريب زوجة يسعد بها من يرتبط بها.. فأنت مازلت في مقتبل العمر، ولسوف تحمل إليك أمواج الحياة كل خير وسعادة وأمان في المستقبل القريب بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موسم الحصاد!

أكتب لك رسالتي هذه بعد تفكير عميق. فأنا رجل في الثانية والأربعين من عمري جئت من قريتي الواقعة في أعماق الجنوب بعد إنهائي الخدمة العسكرية لأبحث عن مستقبلي في القاهرة، وزودني أبي المزارع البسيط برسالة توصية شفوية لابن عم له يقيم بالعاصمة ويملك مقهى صغيراً في أحد الأحياء، وكان معي حين جئت إلى القاهرة 33 جنيهاً لا غير هي كل ما استطاع أبي الطيب أن يوفرها لي وركبت القطار مودعاً بدعواته ودعوات أمي لي بالتوفيق في حياتي الجديدة.. وتوجهت إلى مقهى ابن عم أبي أو عمي كما سوف أناديه وعرفته بنفسي فرحب بي في فتور وبدا واضحاً من البداية أنني أمثل له هماً ثقيلاً أضيف إلى همومه.. لكن ماذا يملك الشاب المنقطع عن أهله سوى أن يبتلع مشاعره ويصبر على ما لا يسره؟. وبعد أيام قليلة استضافتي خلالها عمي في بيته وبدأت العمل معه إلى أنجح في الحصول على وظيفة، ولفت هو نظري إلى أنني سوف أبيت في المقهى إلى أن تتحسن أحوالي ويصبح في مقدوري استئجار غرفة لإقامتي المستقلة. وأقرضني بطانية قديمة أصبحت هي فراشي وغطائي ومتاعي الوحيد في هذه المدينة القاسية. وبدأت عملي كمساعد جارسون بالمقهى، أقضي يومي كله وجزءاً كبيراً من الليل ألبي طلبات الزبائن.. وأشتري لبيت عمي ما يحتاج إليه، وأنهي يومى الشاق بمسح المقهى، ثم أفرش البطانية وألقي بجسمي المتعب عليها فأروح في نوم عميق 4 أو 5 ساعات على الأكثر ثم يفتح المقهى أبوابه من جديد ويبدأ يوم العمل التالي.. واستمر الحال على هذا النحو عامين تحملت فيهما الكثير والكثير من مناكفات الزبائن وعصبية عمي الذي لم يكن يتورع أحياناً عن صفعي أمام الزبائن لخطأ ارتكبته عن قلة خبرة.. أو عن جهل.. ولقد بكيت في أول مرة صفعني فيها عمي.. ليس لألم الضرب وحده ولكن لما شعرت به من هوان «وانكسار» وفكرت جدياً في أن أترك كل شيء وأركب القطار عائداً إلى بلدتي وأبي وأمي وإخوتي لآكل الخبز الجاف معهم بدلاً من هذا الذل.. لكني جبنت للأسف عن تنفيذ ذلك.. وكان أكثر ما أضعف عزيمتي هو مقدار الألم الذي سيشعر به أبي إذا عرف بمعاناتي وهو الرجل المصلي الصوام الذي يدعو ربه كل حين بالستر لنفسه وأبنائه.. وهكذا تحملت ظروفي وصبرت على الأذى، وكان أحد الأسباب التي ساعدتني على الاحتمال هو زوجة عمي الطيبة التي تعطف عليّ وابنتها الكبرى التي كانت في بداية الشباب وتتعامل معي باحترام وتهذيب.. وبعد عامين من هذا الشقاء نقص خلالهما وزني بضعة كيلو جرامات بسبب كثرة المجهود وقلة النوم.. وجدت لنفسي غرفة على سطح بيت قديم بجوار بيت عمي، واشتريت سريراً حديدياً قديماً ومرتبة ومخدة ومائدة صغيرة ومقعداً وبعض أدوات المطبخ القليلة. وأصبح لي مسكن مستقل في القاهرة الصاخبة.. وبدأت كذلك أكتشف أن عمي لا يعطيني الأجر المناسب لمجهودي الكبير.. كما بدأت أعرف أنه من حقي أن أنام 8 ساعات كل يوم.. ثم أرشدني أحد رواد المقهى للتقدم لمسابقة للعمل بأحد البنوك وساعدني في استرجاع مواد المدرسة التجارية

التي درست بها فكانت المعجزة هي أنني قد اجتزت الامتحان بنجاح وعينت في هذا البنك.

وبالفعل لم يسعد عمي بعملي الجديد لأنه سيحرمه من نصف مجهودي معه، لكنني لم آبه لذلك واستمررت في العمل بالمقهى في الفترة المسائية.. وحين قبضت أول مرتب لي جلست إلى المائدة الصغيرة في غرفتي وكتبت لأبي خطاباً قلت له فيه إن دعواته الصالحة ودعوات أمي قد أتت ثمارها.. وإنني أصبحت موظفاً محترماً بأحد البنوك الكبرى ولي مرتب إلى جانب عملي الخارجي.. ثم أرفقت مع الخطاب حوالة بريدية بمبلغ 15 جنيهاً.

وبعد عدة أسابيع عدت إلى بلدتي في الجنوب في أول زيارة لأهلي بعد عامين وبضعة شهور وهطلت دموعي وأبي يحتضنني بعنف وأمي تزغرد في وجهي ودموعها تسيل وإخوتي مبتهجون وسعداء بالهدايا البسيطة التي حملتها لهم.. ثم جاء الأهل والأقارب والجيران يرحبون ويهنئون بالعودة والنجاح والتوفيق في العمل.. ورجعت إلى القاهرة وأنا أكثر عزماً وإصراراً على أن أبذل كل ما أملك من جهد لتحسين حالي ومساعدة أبي.. وكنت خلال وجودي معه قد صارحته بحبي لابنة عمي ورغبتي في الارتباط بها فشجعني على ذلك مؤكداً لي أن والدها سوف يتشرف بمصاهرة موظف محترم وشاب مستقيم وناجح مثلي.. وأنه على استعداد للحضور للقاهرة ليخطبها لي.. لكني اتفقت معه على أن أجس نبض عمي أولاً فإذا وجدت ترحيباً كتبت لأبي ليحضر للقاهرة، وفاتحت عمي برغبتي ففوجئت به يرفض بخشونة الموافقة على طلبي.. ويذكرني بقلة إمكاناتي وكثرة أعباء أبي إلخ.. وصدمت صدمة أخرى شديدة وامتنعت منذ ذلك اليوم عن العمل بالمقهى في المساء.. وعلمت من عامل المقهى أن زوجة عمي قد عاتبت زوجها على رفضه لي لأني شاب طيب ومن لحمه ودمه وسوف أصون ابنتها أكثر من غيري.. فلم يغير رأيه.

وتفرغت لوظيفتي.. ثم بدأت بمساعدة الموظف الذي أعانني على العمل بالبنك في ممارسة تجارة العملة وكانت وقتها مازالت محظورة رسمياً ولست أخجل الآن من الاعتراف بذلك لأنها كانت تجارة مثل أي تجارة.. وقد تغيرت القوانين بعد ذلك وسمحت بها.. وخلال ثلاث أو أربع سنوات كانت أحوالي المادية قد تحسنت كثيراً وانتقلت من غرفة السطح إلى شقة معقولة بالبيت نفسه وتحسن مظهري الخارجي.. وانتظمت في إرسالي الحوالات البريدية لأبي وفي زيارة أهلي كل سنة.

كما لم أنقطع عن زيارة عمي في المقهى من حين لآخر.. وزيارة زوجته وأولادهما، وفي إحدى زياراتي هذه فاجئني بأن طلب مني تهنئة ابنة عمي على خطبتها لتاجر ميسور الحال من معارفه.. فهنأتها وفي قلبي غصة لا يشعر بها أحد.

وانفجر بركان الغضب في داخلي ليس من عمي ولكن من الظروف القاسية التي تحرم الإنسان من تحقيق آماله في الحياة.. وتحول هذا البركان إلى طاقة هائلة

على العمل لتحسين أحوالي وإشعار عمي بأن الصغير قد يكبر وأنه قد خسر صهرا وزوجاً لابنته كان يمكن أن يتشرف به لو كان قد صبر قليلاً عليه..

وازداد نشاطي في تجارة العملة كما تاجرت في السلع المعمرة.. أشتريها من تاجر تعرفت عليه وأبيعها لموظفي البنك والبنوك المجاورة ولزبائن المقهى بالتقسيط المريح وبهامش ربح رحيم. وفي أول الشهر أطوف على المشترين لتحصيل الأقساط. ثم توسع نشاطي أكثر فشاركت هذا التاجر نفسه في تجارته بعد أن أقرضته مبلغاً كان في حاجة إليه..

وبعد أربعة أعوام أخرى رغب هذا التاجر في التقاعد بعد أن بلغ السبعين وليس له ولد يواصل تجارته من بعده لأن كل ذريته من البنات المتزوجات، فدفعت له الثمن الذي قدره بالتقسيط وأصبح معرض الأدوات المنزلية ملكاً خالصاً لي.. وحافظت على وظيفتي بالبنك إلى أن انتهيت من دفع الأقساط، ثم استقلت وتفرغت لتجارتي وكان قراراً جريئاً مني لكني أقدمت عليه معتمداً على ربي ثم ثقتي في نفسي.. وأنهى أخي الأصغر دراسته المتوسطة ورغب في المجيء للقاهرة فاستدعيته وكلفته بالعمل معى، وتركت له شقتي القديمة الصغيرة وانتقلت إلى شقة أفضل وازداد حجم تجارتي بعد عمل أخي معي.. وازدادت أرباحي فاشتريت بعد ثلاثة أعوام محلاً آخر قريباً من محلي وكتبت لشقيقي 25 ٪ من ملكية تجارته مقابل أن يديره ويحافظ عليه.. وجاءني دعاء أمي وأبي لي بالستر والصحة عبر التليفون شكراً لي على ذلك..

ورأيت أن العمر يجري بي فتزوجت من كريمة تاجر من معارفي واستقرت حياتي.. وساعدت أبي في زواج الشقيقتين.. وشعرت بالرضا عن نفسي لذلك.. وجاءني شقيقي ذات يوم ليقول لي في خجل إنه معجب بفتاة تعمل في محل تجاري نتعامل معه ويفكر في خطبتها لكنه يخشى ألا أوافق على ذلك لأنها من أسرة بسيطة.. فقلت له على الفور: وهل كانت هناك أسرة أكثر بساطة من أسرتنا؟

اخطبها على بركة الله وأنا معك قلباً وقالباً فالسعادة لا تتحقق بالمال وحده! فلم أدر إلا وهو ينحني على يدي ليقبلها قبل أن أسحبها مستغفراً ربي.. ومقبلاً شقيقي في جبهته.

وفوجئت بعد خطبته بأيام بعمي يزورني في محلي غاضباً ومعاتباً ومتهماً إياي بالجحود وإنكار فضله عليّ، لأني لم أوجه شقيقي لخطبة ابنته الثانية بدلاً من تلك الفتاة الغريبة التي لا تليق أسرتها بتاجر كبير مثلي!

وقلت له في هدوء إنني لا أستطيع إرغام شقيقي على شيء لم يرده من تلقاء نفسه.. وأن زواج الغرباء لا شيء فيه مادام يحبها وتحبه، ومنعني أدبي من أن أذكره بأنه قد سبق له أن رفض يدي الممدودة إليه وفضّل عليّ هؤلاء «الغرباء» بسبب فقري وقلة حيلتي حينذاك.

وتزوج شقيقي وكانت الأيام السابقة لزفافه من أسعد أيام عمري فقد اجتمع فيها أبي وأمي وشقيقتاي وزوجاهما وأبناؤهما.. ونزل الجميع ضيوفا عليّ.. وكعادتنا

في بلدتنا أحيينا الليلة السابقة للزفاف في مسكني نغني ونطبل احتفالا بالعريس بين زغاريد أمي والشقيقتين وزوجتي وابتهاج أبي وافتخاره بي.. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أمسك بالعصا وأدعو شقيقي للتحطيب معي كما كنا نفعل ونحن طفلان صغيران ونروح ندور حول بعضنا البعض وهو ممسك بعصاه وأنا بعصاي وسط فرحة الأهل بنا ثم ننهى التحطيب بالعناق الحار.

وفي اليوم التالي زف لعروسه وسعد بحياته وشاركني الجميع الفرحة، ما عدا عمي الذي لم يحضر الزفاف ومنع أسرته من المشاركة.

أما أبي وأمي فلقد «اعتقلتهما» في بيتي شهراً كاملاً بعد الزفاف في حين رجعت الشقيقتان إلى بلدتنا.. ولم أسمح لأبي وأمي بالعودة إلا بعد أن ألحا عليّ كثيراً برغبتهما في ذلك، وصحبتهما إلى القطار وقطعت لهما تذكرتين بالدرجة الأولى المكيفة وقلت لأبي إنه قد عمل كثيراً وشقى طويلاً وإنني أريد منه ألا يعمل بعد الآن في حقله الصغير أو في حقول الغير، وإنما يؤجر بضعة القراريط التي يملكها لأحد الأهل البسطاء ويستمتع هو بالراحة والجلوس أمام البيت وشرب الشاي والتسامر مع أصدقائه ومحبيه.. في الصباح.. وفي الأصيل.. بعد أن أكرمني ربى وأغناه هو عن أن يواصل العمل وهو في شيخوخته.

وركب أبي وأمي القطار وهما يدعوان لي بالستر في الدنيا وفي الآخرة.

ولقد أطلت عليك كثيرا وأشعر الآن بأنني يجب أن أنهى خطابي هذا بالوصول إلى المشكلة التي دفعتني للكتابه لك..

فالمشكلة هي أن ابنة عمي التي أحببتها في بداية كفاحي بالقاهرة والتي حرمني منها والدها - سامحه الله - قد ترملت منذ عامين بعد أن مرض زوجها - يرحمه الله -قبل وفاته بعدة سنوات بمرض خطير استنزف معظم ماله.. ثم رحل عن الحياة تاركاً لها ثلاثة أبناء.. وغرقت هي في مشكلات عديدة مع إخوته حول ما تبقى من ميراث.. وتدخلت أنا لديهم لمساعدتها على الحصول على حقها فلم تحصل إلا على أقل القليل..

ومنذ وفاة زوجها.. وعمي يكثر من زياراته لي.. واسترجاع ذكريات بدايتي معه كأنما يقول لي إنه لولا أن ساعدني وأتاح لي فرصة العمل معه، لما وصلت لما وصلت إليه الآن.

ثم فاتحني بعد ذلك صراحة في أن من «واجبي» أن أستر ابنته وأتزوجها على زوجتي لكي أرعى أبناءها وأحميهم من غوائل الدهر لأن العمر قد تقدم به ويريد أن يطمئن على ابنته قبل مجيء الأجل المحتوم وإذا لم «أستر» أنا ابنته وأحمها فمن ذا إذن الذي يسترها ويحميها وهي من لحمي ودمي.. ولوالدها حق عليّ؟!

ولست أنكر عليك أنني شعرت في بداية حديثه معي بشيء من الاضطراب، لكني سرعان ما تمالكت نفسي وأدركت أنني مقبل على طريق صعب قد يؤثر على حياتي وتجارتي وعملي، فأنا مستقر في حياتي الزوجية.. ولى من زوجتي طفلان.. وهي سيدة فاضلة وطيبة وأم حنون على أبنائها.. وتحب أهلي وتحترمهم

ولم تشعرني ذات يوم ببساطة أسرتي بالمقارنة بأسرتها.. ولقد رضيت بحياتي معها وإن كانت مشاعري تجاهها مختلفة عن مشاعر الحب العنيف الذي شعرت به تجاه ابنة عمي في شبابي.. فهي مشاعر هادئة لا لوعة فيها ولا وجد.. لكنها وفرت لي الاستقرار والأمان.. وأطلقت قدراتي على العمل حتى حققت أكثر مما كنت أتمناه لنفسي من نجاح مادي.. وتأمين للمستقبل وحياة كريمة لأسرتي ولأهلي.. وبفضل حكمتها اشتريت شقة جميلة.. وأصبح لنا شاليه في الساحل الشمالي وسيارة فاخرة.. ورصيد محترم.. لكن عمي من ناحية أخرى يُلح عليّ برغبته ويكثر من دعوتي للغداء في بيته وتشارك زوجته الضغط عليّ، وابنة عمي تبدي تجاهي اهتماماً شديداً.. وحنواً زائداً.. ويدور الكلام خلال جلساتنا حول حق الرجل في الزواج من اثنتين وثلاث وأربع بدون أن يعني ذلك أي ظلم للزوجة الأولى.. إلخ!

وبعصبيته المألوفة يكاد عمي يفقد صبره عليّ في أحيان كثيرة «ويتشاجر» معي لترددي في تلبية مطلبه باعتبار ذلك «ديناً له» عليّ ويجب سداده وإلا كنت جاحداً وناكرا للجميل! خاصة أن أحواله المادية الآن سيئة وأحوال ابنته كذلك.

ولقد لاحظت أننى قد تأثرت في الفترة الأخيرة بهذا الضغط واضطربت أحوالي بعض الشيء ومازلت غير قادر على مواجهة عمي بالرفض القاطع أو القبول الصريح.. علماً بأن زوجتي لن تقبل بزواجي بابنة عمي بأي حال من الأحوال.. وسوف تتمسك بالانفصال إذا أقدمت عليه! وإنني أرغب في مساعدة عمي بالفعل لكنه لا يخفي عني في الوقت نفسه ما في إلحاحه عليّ بالزواج من ابنته من «طمع» فيّ.. وضغط عليّ باتهامي بالجحود وإشعاري بأنني لست «أصيلاً» مثله وهو الذي احتضنني وأخذ بيدي حين جئت للقاهرة.. فماذا تقول لي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قيل في وصف الصحابة الأكرمين - رضوان الله عليهم - أنهم كانوا «يكثرون عند الفزع... ويقلون عند الطمع» بمعنى أنهم كانوا يظهرون عند الشدة.. ويختفون عند توزيع الغنائم! فإذا كان عمك يتحدث عن «الأصالة» فهذا هو أحد أهم معاييرها.. أما أن يرفضك بخشونة وأنت شاب مكافح ويفضل عليك من هو أقدر منك مادياً على توفير الحياة اللائقة لابنته مذكراً أو «معيراً» إياك وهو الأصح بفقرك وقلة إمكاناتك وسوء أحوال أبيك المادية وكثرة أعبائه، فإذا شققت طريقك في الحياة وعبرت أمواجها المتلاطمة بنجاح إلى شاطئ الأمان المادي.. جاءك معاتباً إياك لانصراف شقيقك عن التفكير في خطبة ابنته الصغرى ومغرياً لك في مرة ثانية بالزواج من ابنته الأرملة زاعماً لك أن نكوصك عن ذلك أو ترددك إزاءه يعد نقصاً في أصالتك أو نخوتك أو وفائك له، فليس ذلك من المنطق أو العدل في شيء كثير أو قليل.. ولا تفسير لابتزازه النفسي لك بتهمة الجحود سوى أنه يستخدم كل ما هو متاح له من أسلحة عاطفية لإحراجك وتحقيق ما قد أصبح يرى

فيه الآن أنه في مصلحة ابنته الأرملة ومصلحته، بغض النظر عن عدالة ذلك أو منطقيته.

إذ كيف يكون «رد الجميل» الذي يتوهمه هو بأن تعرض حياتك العائلية المستقرة للاضطراب.. وأطفالك الصغار للتمزق بين أبويهم؟

إن هناك وسائل عديدة لرد الجميل.. إذا كان ثمة «جميل» لكنه ليس من بينها بكل تأكيد أن تضحي باستقرار حياتك العائلية وربما العملية كذلك لكي تثبت لعمك أنك مازلت على عهد الوفاء مقيم.. أو أنك مازلت الشاب الأصيل الذي كنته.

فالحق أنك كذلك بغير حاجة لإيلام زوجتك.. وتعريضها وأبنائك للمعاناة، كما أنك لست في حاجة لإثبات أصالتك هذه لأحد خاصة هذا العم الذي لم يكن هو نفسه على قدر الرجاء فيه حين جئت إلى القاهرة شاباً حائراً غريباً لا عون لك ولا سند سواه.

ويكفي تماماً لإثبات أصالتك أنك كنت ومازلت نعم الابن البار بأبويه وإخوته كما كنت ومازلت أيضاً نعم القريب الذي لم ينقطع عن عمه بالرغم مما لاقاه منه.

فإذا كان عمك يعتبر نفسه مساهماً فيما حققته من نجاح مادي في الحياة العملية، فإن أهم أسباب نجاحك العملي وتوفيقك في الحياة إلى جانب إرادتك القوية وصبرك على المكاره وكفاحك المرير - في تقديري - هو برك بأهلك وإعانتك لأبيك وإخوتك على أمرهم وعدم تنكرك إنسانياً لهذا العم بالرغم من كل شيء، فأي دور إذن لعمك هذا فيما حققت من نجاح؟ وأي دين له عليك يستوجب سداده أن تفقد زوجتك وتمزق أطفالك وتحرمهم من النشأة الآمنة بين أبويهما؟ إن عمك يستغل فيك يا صديقي أصالتك وحرصك على الوشائج العائلية وعليه بالرغم مما لقيت منه من عنت بلغ في بعض الأحيان حد صفعك على الملأ وعدم الترفق بك في ضعفك وقلة حيلتك.

ولقد أخطأ تقدير قدراتك ومميزاتك في البداية ويريد الآن أن يعوض بعض ما أضاعه على ابنته بسوء التقدير وخطأ الحسابات.. ولقد قلت من قبل إنه ليس من حق من لم يشارك في بذر البذور ورعاية النبته الصغيرة أن يأتي في موسم الحصاد ليطالب بنصيبه من ثمارها فإذا كانت أحوال ابنته المادية ليست على ما يرام الآن فإنك تستطيع إعانتها على أمرها ببعض زكاة مالك كما تستطيع أيضاً إعانة أبيها إذا شاء ذلك بإقراضه ما يقيله من عثرته.. أو حتى بتوجيه بعض زكاتك له إذا كان مستحقاً لذلك والأقربون أولى بالمعروف دائماً من غيرهم، لكنه ليس من العدل والحكمة أن تكون إعانتك لها بالزواج منها وتعريض حياتك العائلية والعملية للخطر والاضطراب.. ولقد قلت في رسالتك إن مشاعرك تجاه زوجتك تختلف عن مشاعرك السابقة تجاه ابنة عمك حين رغبت في الارتباط بها وإن مشاعرك تجاهها «هادئة» وليست ملتهبة كما كانت مشاعرك تجاه الأخرى في بداية الشباب.. ولقد فات عليك إدراك قيمة هذه المشاعر الهادئة نفسها ومدى عمقها وتغلغلها في النفس والوجدان..

فالمشاعر الهادئة هذه ليست سطحية ولا ضعيفة الأثر في نفس من يحملها.. وإنما هي تيار متصل يتسم بالاستمرارية والثبات على خلاف المشاعر الفوارة التي قد ترتفع إلى الذرى العالية في بعض المراحل ثم تخمد وتهبط إلى سطح الفتور بعد حين.. وأكثر قصص الزواج نجاحاً وتوفيقاً واستمراراً إنما اعتمدت على مثل هذا التيار الهادئ المتصل من المشاعر، أكثر مما اعتمدت على الفوران العاطفي المتأرجح دوما بين الحدة والخمود.

إنها مشاعر ينطبق عليها المثل الإنجليزي القائل: « ببطء.. ولكن بثقة! » وهي أحد أسباب تفرغك الذهني للعمل والابتكار والنجاح المادي، فلا تستهن بهذه المشاعر أو بعمق تأصلها في أعماقك، فلسوف تكتشف بعد فوات الأوان أنها الأكثر دواماً واستمراراً من تلك المشاعر الملتهبة التي تفور فورانها وتخمد بعد حين، واحرص على زوجتك وأطفالك وحياتك العائلية المحترمة والمستقرة، واعتذر لعمك بحسم عن عدم قدرتك على تلبية مطلبه بالزواج من ابنته راجياً لها السعادة والتوفيق مع من تلائمها ظروفه.. ولايجيء ارتباطه بها وإنقاذه لها من مشكلتها على حساب أسرته واستقرار حياته.. وشكراً لك على ما في رسالتك القيمة هذه من جوانب إيجابية وإنسانية تُعلي من قيم الكفاح والإرادة والبر بالأبوين والأهل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتقام الوهمي!

أنا سيدة في العقد الثالث من عمري، متزوجة منذ عدة سنوات من شاب طيب متدين من أسرة طيبة، ولست أكتب لك اليوم لأشكو من مشكلة أعاني منها الآن وإنما لأحدثك عن مشكلة كنت أعاني منها في الماضي، وأرجو أن تفيد رسالتي هذه غيري ممن يقرأونها حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه من أخطاء جسيمة. فلقد نشأت في أسرة صغيرة متوسطة الدخل مكونة من الأب والأم وبنات أنا أكبرهن. وإني أعترف بأن أمي قد كافحت كثيراً إلى جوار أبي لكي نحصل على أفضل تعليم وأحسن مستوى معيشة ممكن. أما المشكلة التي كنت أعاني منها فكانت في الأسلوب الذي اتبعته أمنا في تربيتنا نحن البنات. فقد اتسم دائماً بالصرامة والحدة والأوامر القاطعة، وأظن أن ذلك كان لأنها لم يكن لديها متسع من الوقت لتدليلنا أو لسماع رأينا في أي موضوع، حتى ولو كان يخصنا.. إذ كانت تعتبر أي محاولة منا للمناقشة مجرد ثرثرة لا جدوى منها، لأننا في النهاية سننفذ أمرها فلا داعي إذن «لوجع الدماغ» وقد كنت أحس دائما بالكبت والرغبة في التمرد على هذا الوضع مع شعوري الشديد بضعف شخصيتي وهواني، فكنت ألجأ في سن مبكرة جدا لكتابة خواطري المليئة بالغل والكراهية لهذه «السيدة» التي تظن أنها سلبتني إرادتي ولا تقيم أي وزن لمشاعري واحتياجي للعطف والحنان. فما أن بدأت أخطو سنوات المراهقة الأولى حتى ازدادت رغبتي في أن أثبت لنفسي أنني قادرة على الخروج من أسر سيطرتها المحكمة هذه وعلى إشباع احتياجاتي العاطفية. وما أن التقيت بأول شاب حتى بدأت أخرج وأستمتع بكلامه لي وأشعر معه أنني إنسان له كيان وأني أحظى بحب واهتمام شخص ما، ولم يكن هذا الشاب بالطبع يحبني ولم يتعد هو أيضاً الشعور بالاستمتاع بالخروج مع فتاة متعطشة للعواطف والحنان، وقد ملني وتركني بعد فترة أو تركته أنا، لا أذكر، ثم تكررت علاقاتي بعد ذلك بنفس الطريقة، وكنت أتلذذ بالشعور بأن أمي لا تدري شيئاً عن هذه العلاقات، وما أن اقتربت من سن العشرين حتى بدأت أشعر بالذنب وأحاول أن أستميلها إليّ لأستدر عطفها وحنانها، وأن أشعرها أني قد كبرت وأني من الممكن أن تكون لي رغبات وحياة أخرى لا تعلمها. إلا أنني لم أجد سوى السخرية مني.. ومازلت أذكر حتى الآن ردها عليّ بأن تصرفاتي ليست نابعة من إرادتي وإنما من تربيتها لي التي كونت شخصيتي وإني لا أملك سوى أن أكون ما أرادتني هي أن أكونه. مما أثار تمردي مرة أخرى وبصورة أشد فتورطت في علاقات مع زملائي في الجامعة وساعدني على ذلك أنني أتمتع بقدر كبير من الجمال. ولولا أن الله قد أراد لي الهداية فيما بعد لكنت قد فقدت أعز ماتملك الفتاة واستسلمت للضياع. لكن ضميري استيقظ في النهاية والحمد لله وبدأت أشعر أني أمتهن نفسي وأنتقم منها وليس من أمي، فبدأ فكري يتجه اتجاهاً دينياً وأدركت أن الزواج هو الذي سينقذني من هذا السقوط فوافقت على أول رجل تقدم لي وتوسمت فيه أنه شخص نبيل، وعلى خلق ودين، وتزوجته وعاهدت الله أن أحافظ على زوجي وأحرص عليه وأن أبعد عن كل ما يمكن أن يؤذيه أو يؤذي

مشاعره، وكان فضل الله عليّ كبيرا إذ أحببت زوجي حبا شديدا وحظيت بحبه وحنانه، مما عوضني عن سنوات الحرمان التي قضيتها في بيت أبي.

وإني أكتب لك هذه الرسالة لأني أعلم أن أمي ليست نموذجاً منفرداً في مجتمعنا وإنما هناك أمهات لم يتعلمن كيف يبذلن من وقتهن ومشاعرهن وعطفهن لأبنائهن ما يبذلن مثله في العمل داخل المنزل وخارجه، وأرجو من كل فتاة أن تحافظ على سلوكها وألا تجعل أي سبب يدفعها للقيام بأي تصرف قد تندم عليه فيما بعد أشد الندم لأن كل تصرف تقوم به دون علم أهلها يعتبر خيانة للأمانة سيحاسبها الله عليه. كما أكتب لك هذه الرسالة لأني بدأت ألاحظ على أختي الصغيرة نفس المشاعر التي كنت أشعر بها وأنا في مثل سنها، وأمي بالطبع مازالت تتعامل معها بنفس الأسلوب القديم. والأمر الذي يثير الأسى والسخرية في نفس الوقت هو أن أمي تذكر دائماً لكل من يشكو لها من صعوبة تربية الأولاد، أننا لم نكن أبداً مصدر تعب أو قلق لها على مدى فترة تربيتنا! فربما تكون رسالتي هذه جرس تنبيه لأمي التي لا أستطيع مواجهتها بالحقيقة حتى الآن ليس لأني أخاف منها حيث لم يعد لها سلطان عليّ بالطبع، ولكن لأني أخاف أن أصدمها بما قد لا تتحمله من حقائق قاسية فالحق أنني مازلت على ثقة بالرغم من جفائها معي من أنها لم تكن تقصد أي إساءة لي أو لأخواتي ولهذا فهي لا تستحق مني أن أوذي مشاعرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

رسالتك ياسيدتي تكشف لنا عن حقائق مفزعة عما يمكن أن تؤدي إليه العلاقة غير السوية بين الأم وابنتها إذا افتقدت الدفء العاطفي والصداقة الراشدة والمساحة الطبيعية للتفاهم والحوار بينهما.

وبالرغم من ذلك فإني لم أشعر بالارتياح لتبرير إقدامك على خوض تجربة العبث والاندفاع خلال فترة معينة من حياتك، بأنك إنما قد فعلت ذلك كرد فعل «طبيعي» لجفاء العلاقة بينك وبين والدتك، أو بزعم الانتقام المعنوي من تسلطها عليك.. أو بحجة إشباع رغبتك في الإحساس بالجدارة واجتذاب اهتمام الآخرين وحبهم. فكل هذه المبررات وبالرغم من واقعية بعضها لا تبرر أبداً الاقتراب من دائرة الخطر والتحرر من القيود الأخلاقية، حتى ولو ساعدتنا على فهم بعض الدوافع، فإذا كان أسلوب والدتك في التربية الجافة القائمة على السيطرة الكاملة على حياة الأبناء وقهر إرادتهم وإملاء الرغبات عليهم دون إقناع ولا حوار، أسلوباً خاطئاً وهو كذلك بكل تأكيد، فإن الاحتجاج عليه لا يكون بالعبث والاندفاع إلى الطريق الخاطئ، لأن الخطأ لا يبرر الخطأ.. ولأنه شتان بين خطأ أم اعتمدت أسلوباً جافاً في التربية يعتمد على القهر ويفتقد إلى دفء الصداقة بينها وبين بناتها، وبين خطأ ابنة «انتقمت» منها في نفسها حتى أوشكت أن تمضي في طريق الغواية

حتى نهايته المظلمة لولا أن رحمها ربها واستيقظ ضميرها وهي على شفا حفرة من الضياع.

فأسلوب والدتك في النهاية وبالرغم من إدانتي له واختلافي معه هو اجتهاد خاطئ في التربية قد يشفع لها فيه، أو يخفف من بعض وزره، حسن النية وسلامة المقصد بدليل أنك أنت نفسك قد أدركت ذلك بعد فوات الأوان وأشفقت عليها من إيلام مشاعرها.. أما احتجاجك على هذا الأسلوب بما فعلت بنفسك خلال فترة جاهليتك الأولى.. فلا شفاعة فيه ولا أعذار اللهم إلا صغر السن وقلة الخبرة وسوء الفهم.. وضعف الوازع الديني وبعض هذه الأعذار أقبح من الذنب نفسه كضعف القيم الدينية.. وسوء فهم مقصد الأم من أسلوبها الخاطئ في التربية.

لكن لأنه لا يلام المرء على أمر قد رجع عنه وندم عليه فلن أطيل الحديث كثيراً في هذه الناحية.. وإنما سأقول لك فقط إنك وقد خضت تجربة الخطأ ودفعت ثمنها غالياً من وخز الضمير، مطالبةً الآن بحماية شقيقتك الصغرى من ملامسة مياه هذه البحيرة السامة، قبل أن تخوض فيها وتجرفها تياراتها، ومن حقها عليك الآن أن تجنبيها نفس المحنة ونفس الضياع وأن ترشديها إلى مافيه صلاح أمرها.. والأفضل هو أن توجهي بعض اهتمامك لها وأن تنبهي والدتك إلى ضرورة تصحيح نمط علاقتها بها وتوجيه الوقت الكافي لاكتساب صداقتها.. وإشباع احتياجاتها من العاطفة والحنان والإحساس بالجدارة لكيلا تطلب كل ذلك من الطريق الآخر.. فالحق أنني توقفت متأملاً أمام عبارة خطيرة في رسالتك تقولين فيها إن والدتك ليست نموذجاً منفرداً بين الأمهات، وإن منهن من لا يوجهن للعلاقة الإنسانية بينهن وبين بناتهن بعض ما يوجهنه من وقت لأعمال البيت أو لعملهن خارجه، وليس أدل على الخلل الجسيم في ترتيب الأولويات الجديرة باهتمام الآباء والأمهات من مثل هذا الخلل.. فالأبناء ينبغي لهم أن يكونوا فوق قمة هرم اهتمامات الآباء والأمهات ومن بعدهم تأتي أعمال البيت وعمل الأمهات في الخارج وكل شيء آخر الحياة.

فلتكن إذن رسالتك هذه كما تقولين جرس الخطر لبعض من تشغلهن شئون الحياة المادية عن بعث الدفء في علاقتهن ببناتهن وأبنائهن - ولتكن كذلك تنبيهاً صارخاً إلى حاجة الأبناء وخاصة البنات منهم إلى صداقة الأمهات والآباء واهتمامهم ووقتهم، لكيلا يضلوا الطريق ويلتمسوا كل ذلك من المورد الخاطئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الموقف العنيد!

أنا رجل أبلغ من العمر 36 عاماً ومتزوج ولي طفلان جميلان أكبرهما في السادسة، والآخر في الرابعة من عمره، وقد تزوجت منذ سبع سنوات بزميلة لي بالعمل بعد فترة خطبة استمرت عامين، وأكرمنا الله بسكن جيد من أربع غرف قمنا بتأثيثه قبل الزواج، وقد بدأت مشكلتي منذ فترة الخطبة حيث تبين لي أن خطيبتي عنيدة للغاية وتتعامل معي بندية مبالغ فيها، وقد تسألني ولماذا إذن استكملت مشوار الارتباط بها بالرغم من اكتشافك لعنادها الشديد في فترة الخطبة، وأجيب على سؤالك بأنه كانت لدي اعتبارات أخرى حالت بيني وبين إنهاء الارتباط قبل إتمامه.. أولها خوفي من الله أن أكون مخطئاً في هذا القرار بعد أن خطبتها ودخلت بيتها وتهيأ أهلها لاستكمال المشروع، والثاني هو أنها يتيمة الأب، والثالث هو الأمل في تغير شخصيتها بعد الزواج، وهكذا تزوجنا وحدثت بيننا بعض الخلافات على فترات متفاوتة بسبب عنادها وردودها الجافة في أغلب المواقف، ثم رزقنا الله بطفلتنا الأولى وحصلت زوجتي على إجازة من العمل وتفرغت لرعايتها إلى أن بلغت الثالثة.. ورجعت للعمل من جديد.. وكنا نترك طفلتنا في دار الحضانة إلى أن نرجع من العمل بعد الثالثة لاستلامها فنجدها نائمة وحدها بالحضانة والفراشون يقومون بأعمال النظافة وكنس الأتربة مما أدى إلى إصابة ابنتي بحساسية في صدرها وهي مازالت طفلة في عمر الزهور.

ومضت الأيام ورزقنا الله بالطفل الثاني فلم تمهله زوجتي كي يستمتع بحنانها ورعايته سوى بضعة شهور ثم أصرت على العودة للعمل مرة أخرى، وشاءت الظروف أن تدخل شركتنا دائرة الخصخصة وعرضت الإدارة على العاملين بها تعويضات مالية نظير ترك العمل، فقررت الاستقالة والحصول على التعويض لكي أبدأ حياة جديدة في مكان آخر، ووفقني الله بالفعل في فرصة عمل جيدة في موقع مرموق وبدخل مناسب، وقررت زوجتي بمحض إرادتها بعد ذلك ترك العمل والحصول على التعويض وكان تعليقي على قرارها هو أن الله سبحانه وتعالى قد عوضها بمبلغ تستطيع إيداعه في البنك والحصول منه على عائد شهري مناسب فتستطيع التفرغ لرعاية طفليها وهما في مرحلة من العمر يحتاجان فيها إلى رعايتها أكثر من أي شيء آخر خاصة وأن عملي يتطلب قضاء وقت طويل فيه، وأمضت زوجتي قرابة العام متفرغة للبيت والأسرة ثم فوجئت بها تقرر البحث عن عمل من جديد وحاولت إقناعها بأن البيت والطفلين وزوجها يحتاجون إليها، وأن عمر الطفلين ليس مناسبًا لعملها الآن.. فلم تقتنع بشيء ومضت في البحث عن عمل حتى وجدته، وراحت تعد الأوراق اللازمة لاستلام العمل دون أن تأبه لاعتراضي.. ولجأت إلى أمها وشرحت لها أننا لسنا في حاجة إلى عائد عملها وأنها ستعود إلى ترك الطفلين كل يوم من الصباح حتى الخامسة مساء، وأنني منذ تزوجنا وأنا أطالبها بالتفرغ للأسرة بلا طائل ووافقتني والدتها في رأيي وكذلك خالها الأكبر الذي يعتبر والدها وحاولا إثناءها عن رغبتها دون فائدة ورجعت للحوار معها من جديد وسألتها لماذا تحتاج للعمل وظروفنا أفضل من كثيرين

غيرنا ولدينا طفلان في سن يحتاجان فيها لرعاية الأم؟ فلم أسمع منها سوى: ولماذا لا أعمل لكي أستطيع شراء بوتاجاز كبير وديب فريزر وأنتريه جديد ونعيد طلاء الشقة؟.. وأجبتها بأننا سنشتري كل ذلك ولكن بالتدريج.. وأن رزق الله لعباده ليس مالاً فقط وقد وهبنا سبحانه وتعالى الأبناء والصحة والرزق الطيب.. فلم تجد محاولاتي معها أي نتيجة، وأمام إصرارها على العمل هددتها بأنها إذا أصرت على ترك الطفلين والنزول للعمل فسوف أهجر البيت إلى أن ترجع عن عنادها. ونفذت تهديدي بالفعل وهجرت البيت وأقمت لدى أهلي بعد أن رفضت التراجع عن موقفها بالرغم من محاولات أهلي وأهلها معها.

وها قد مضت 5 شهور على هجري لبيتي دون أية خطوة إيجابية من جانب زوجتي.. ولقد حكم كل من تدخل بيني وبينها بأنها عنيدة للغاية ولم تضع أبناءها وزوجها في الاعتبار عند اتخاذها لهذا الموقف العنيد ولولا الطفلان لكان قراري بالانفصال بعد كل ما عانيته من عناد زوجتي وردودها الجافة خلال معاشرتي لها سامحها الله وهداها لكيلا يتعرض بيتنا الجميل للانهيار.. فماذا تقول لي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

العناد دليل الغباء وافتقاد الحكمة والمرونة.. كما أنه دائما أقصر الطرق إلى التصادم مع الآخرين والإضرار بالنفس وبالغير.

ولقد تطور الموقف الآن بينك وبين زوجتك حتى أصبح صراعاً بين إرادتين لا نهاية له إلا بهزيمة أحد الطرفين وانتصار الآخر، كما كان الحال في روما القديمة حين كان الأباطرة يتلهون بمشاهدة مباريات المصارعة حتى الموت بين سجينين توهب للفائز منهما الحياة.. ويلقي الآخر مصرعه قرباناً لحرية المنتصر.

وليس هكذا ينبغي أن تكون العلاقة السوية بين شريكي الحياة اللذين تربط بينهما أواصر المودة والرحمة والتفاهم والحرص على المصلحة المشتركة للأسرة والأبناء.

وفي تقديري أن زوجتك قد أخطأت بمضيها في اتخاذ إجراءاتها للالتحاق بالعمل الجديد بالرغم من رفضك الصريح لعودتها للعمل وسعي أهلها الحثيث لإثنائها عن رغبتها في ذلك حرصاً على كيان الأسرة والطفلين، فلقد أسقطت بذلك قوامتك عليها وأعلنت التحدي السافر لإرادتك، والعمل في النهاية حق للمرأة وليس واجباً مقدساً عليها.. ومن الحكمة أن تتخلى عنه بصفة مؤقتة أو دائمة إذا دعتها ظروف أطفالها للتفرغ لهم أو اعترض زوجها عليه لأسباب يقدرها ويشاركه الأهل في حكمة تقديره.. خاصة إذا لم تفلح الزوجة في إقناعه بالحوار والتفاهم بقبوله.. وفي كل الأحوال فإن الحوار هو السبيل الوحيد للتفاهم حول هذا الأمر وليس الضغط والإكراه والتصلب والمراهنة على عجز الطرف الآخر عن الصمود

على موقفه للنهاية.. كما تعتمد زوجتك الآن على هذا الرهان وتأمل في رضوخك للأمر الواقع وعودتك للبيت على أساس التسليم به.

ولقد يكون الحل الوسط في هذا الموقف هو أن تكتفي زوجتك بما حققته في عملها خلال الشهور الماضية، وتبرهن على مرونتها وحرصها على زوجها وطفليها وبيتها بالاستقالة من العمل والتفرغ للأسرة لعامين آخرين أو ثلاثة يشتد خلالها عود طفليها ويصبح من حقها بعدها التطلع للعمل وتحقيق طموحاتها فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتقام من الماضي!

أنا شاب في الثلاثين من عمري شاء لي القدر أن أفقد أمي وأنا في سن المراهقة.. فنشأت بين إخوتي وتدرجت في التعليم حتى بلغت عامي الثاني بإحدى جامعات الإقليم.. وفي الإجازة توجهت إلى القاهرة للعمل في الصيف، وتعرفت في دائرة السكن بفتاة تبادلت معها الإعجاب والحب وارتبطت بها وصارحت إخوتي بنيتي في الارتباط بها، وبعد فترة أخرى خطبتها.. وأنهيت خلال عامين من الخطبة كل التزاماتي من حيث توفير المسكن والأثاث إلخ.. وذات يوم خرجت من عملي بالقاهرة إلى بيت خطيبتي فلم أجدها فيه وانتظرتها حتى التاسعة مساء فإذا بها تعود وهي تضع الماكياج الثقيل الذي لم أرها به من قبل.. وسألتها عما أخرها، ففوجئت بها تصيح في وجهي بأنها قد أنهت كل ما بيني وبينها.. وتطلب مني أن أدعها لشأنها.. وصعقت حين سمعت ذلك وحاولت معاتبتها فلم أجد لديها أي استعداد لتقبل عتابي.. وانصرفت حزيناً.. ووسطت بعض أهلها لديها في أن تعدل عن موقفها المفاجئ ففشلت كل المساعي.. وتم فسخ الخطبة بالفعل.. وساءت حالتي المعنوية والصحية.. وعشت ستة أشهر كاملة وأنا شبه مريض، وانتهى الأمر بدخولي المستشفى بالفعل وإجراء جراحة لي..وغادرت المستشفى وقد فقدت الثقة في نفسي وفي الحب وفي كل الفتيات، وبعد عامين آخرين تزوجت من فتاة طيبة من مدينتي الصغيرة وأنجبت منها طفلاً وعشت معها حياة هادئة وبلا مشاكل، ونظمت حياتي بحيث أقضي أيام الأسبوع بالقاهرة، حيث أعمل وأرجع إلى مدينتي القريبة لأمضي يومين مع زوجتي وطفلي.. وبعد ثماني سنوات من فسخ خطبتي لفتاتي القديمة التقيت بها بالمصادفة قبل أسابيع وعرفت منها أنها قد تزوجت وأنجبت طفلاً ثم طلقت ورجعت للإقامة مع أسرتها.. وبدأ مسلسل إحياء الحب القديم وغير ذلك من سيناريو هذا الفيلم الهندي المألوف.

وقد وجدت نفسي بعد قليل أسعى إلى «خطيئتي».. أو خطيبتي الأولى وأتحدث معها عن الزواج ليس لأنني مازلت أحبها.. وإنما لكي أنتقم منها بسبب ما فعلته بي في الماضي.. وبسبب جحودها وتحطيمها لقلبي بلا رحمة من قبل. وكلما استمعت إلى صوت العقل.. وصرفت النظر عن التفكير فيها وجدتني في شوق لأن أشفي غليلي منها وأن أحطم قلبها كما حطمت قلبي، وأذاقتني مرارة الحرمان من الحب.. ومرارة جحودها وتنكرها لي.. إنني حائر ولم أستقر بعد على رأي.. وزوجتي الطيبة تلوح لي أحياناً في مخيلتي فيخيل إليّ أنها تعاتبني وتلومني على ما أفكر فيه .. فماذا أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

الانتقام الحقيقي من الفتاة التي حطمت قلبك وتنكرت لك من قبل - إن كان ثمة ضرورة للانتقام من الأصل - هو أن تسعد بحياتك مع زوجتك الطيبة وطفلك

الصغير.. وهو أيضا في أن تشعر تلك الفتاة بأنها قد خرجت من حياتك إلى الأبد.. فتعرف أنها قد خسرت السعادة والأمان معك حين ضحت بك على مذبح تقلب أهوائها وتطلعها للارتباط بغيرك، ولا عجب في ذلك فخير انتقام ممن أساءوا إلينا هو ألا نصبح مثلهم قادرين على الإساءة للغير.. وأن نسقطهم من تفكيرنا نهائياً فلا نسمح لهم بأن يشغلوا من فكرنا ما لا يستحقونه من مساحة حتى ولو كانت مساحة الرغبة في الانتقام منهم أو التشفي فيهم.. فالتشفي في الآخرين «طرف من العجز» كما قال أحد الأعراب ذات يوم ناصحاً الخليفة العباسي المنصور، وزعمك لنفسك أنك ترغب في الزواج من فتاتك القديمة لا لشيء إلا لكي تنتقم من إساءتها السابقة لك وتحطيمها لقلبك، نوع من خداع النفس لايقبل به الفضلاء لأنفسهم، إذ كيف يكون الانتقام منها بإيلام زوجتك الطيبة التي لم تسيء إليك من قبل وأعادت إليك ثقتك المفقودة في النفس وفي الجنس الآخر؟

وكيف يكون الانتقام ممن تنكرت لك قبل سنوات، بتعريض طفلك الصغير للتمزق بين أبويه إذا ساءت الأحوال بينك وبين زوجتك بعد ارتباطك بالأخرى وانتهى الأمر بالانفصال بينكما؟

بل كيف يكون هذا «الانتقام» بأن تكسب فتاتك الغادرة «زوجاً» يحدب عليها مهما زعم لنفسه التشفي فيها.. وتخسر زوجتك المخلصة التي ضمدت جراح قلبك وارتضتك زوجاً كانت سعيدة به وراضية عن حياتها معه؟ وأية حياة هذه ستقوم بينك وبين هذه السيدة لو تزوجتها بنية الانتقام والإساءة فتمضي أيامك معها متوتراً متحفزاً بالرغبة في الإيذاء، أو تزوجتها بنية استعادة الحب القديم فتمضي حياتك معها.. ممروراً بذكريات الخيانة القديمة والشك في إخلاصها لك؟ ياصديقي اصرف النظر نهائياً عن الارتباط بهذه السيدة ودعها لحياتها وأقدارها كما طلبت منك ذات يوم قبل ثماني سنوات، ولا تفتعل الأسباب والمبررات للاقتراب منها، فلقد لفظتك وهي في عنفوان قوتها.. وليس مما يشرفك أن تقبل الآن بك وهي في ضعفها. وشكراً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء العادي!

أكتب إليك وكلي أمل في ألا تضن عليّ بمشورتك.. فأنا سيدة في السابعة والثلاثين من عمري أشغل مركزاً مرموقاً وظروفي المادية جيدة.. ولقد تزوجت منذ عشر سنوات من رجل كريم ميسور الحال ويشغل مركزاً مرموقاً هو أيضاً، ورزقني الله بعد زواجي منه بعام واحد بطفل جميل يبلغ عمره الآن تسع سنوات ويتمتع - والحمد الله - بأخلاق ممتازة ومتفوق دراسياً وذكي جدا وأحمد الله عليه كثيراً.

وبعد عامين من إنجابي لطفلي حملت في طفل آخر ثم تعسرت في ولادته فلم ير الحياة.. وأجريت لي في المستشفى عملية جراحية ومكثت في العناية المركزة فترة طويلة إلى أن كتب الله لي الشفاء، وقررت تأجيل الإنجاب بعد ذلك إلى أن أسترد صحتي ووافقني زوجي على ذلك.

ثم حدث بعد ذلك أن تأخر الحمل كثيرا وطرقت أبواب أكبر الأطباء وخضعت لمشارطهم أكثر من مرة وتكلفت الكثير والكثير ولم يحدث الحمل مرة أخرى بالرغم من تأكيد الأطباء لى أنه ليس هناك سبب محدد لعدم الحمل، وإنما هي إرادة الله سبحانه وتعالى.. فتقبلت إرادته ورضيت بها وحمدت ربي على أن وهبني ابني ورأيت نفسي أفضل حالاً من كثيرين غيري حرموا من نعمة الإنجاب.. لكن المشكلة هي أن زوجي يريد أطفالاً آخرين وحجته في ذلك أنه لا يريد لابنه أن ينشأ وحيداً ويرغب في أن يكون له إخوة يساندونه في الحياة، ولست أختلف مع زوجي في ذلك لكن ماذا أفعل لكي أحقق له هذه الرغبة وأنا لم أدخر وسعاً.. وتكلفت الكثير من مالي وصحتي لتحقيق أمنيته هذه؟.

لقد عرض عليّ زوجي أن يتزوج من أخرى.. ويريد مني أن أتقبل ذلك وأن أعتبره شيئاً عادياً في حياتي، وأن يجمع بيننا ويرى أن ذلك من حقه وأن اعتراضي عليه سيكون ذنباً كبيراً لي لأنه متمسك بي كما يقول ولا يريد أن يفرط فيّ.. غير أني قلت له إنه إذا أراد أن يتزوج من أخرى فهذا حقه ولا منازع له فيه لكن عليه أولاً أن يطلقني ثم يبدأ حياته الجديدة بعد ذلك مع إنسانة أخرى.

ولست أنكر شرع الله أو أنكر حق الرجل في الجمع بين زوجتين إذا اقتضت الضرورة ذلك لكنني إنسانة.. ومن حقي أيضاً أن أرفض هذا الوضع وأن أتحسب لما سوف يكون عليه مركزي ووضعي وحياتي ورد فعل المجتمع والأهل لذلك.. ثم من يضمن له أن تكون الإنسانة التي سيتزوجها كريمة معه ومع أهله مثلي؟ ومن يضمن له أن أبناءه الذين سينجبهم منها - إذا شاء الله - سيكونون أسوياء وإخوة أوفياء لابننا وليسوا سبباً لتعاسته في المستقبل إذا فسدت مشاعرهم تجاهه؟ ومن يدريه أن أمهم لن تزرع الحقد والكره في نفوسهم تجاه أخيهم هذا أو تشعرهم بتميزه عنهم.. أو تحرض زوجها على تمييز أبنائها عنه فيحقد هو عليهم؟.. وكم من آباء أنجبوا أبناء كثيرين ثم رحلوا عن الحياة قبل أن يكملوا رسالتهم معهم وتركوهم للحياة وقسوتها يواجهون مرارة اليتم وافتقاد الأب.

إنني لم أفقد الأمل في الله وأحس في داخلي بأن الله سوف يعوضني خيرا عن طفلي الثاني الذي لم ير الحياة وعن معاناتي الطويلة في العلاج لكن زوجي لا يصبر.. فهل توافقني في رأيي؟.. وهل ترى في رفضي لفكرة الجمع بيني وبين زوجة أخرى ظلماً مني لزوجي كما يقول لي؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يكون ظلماً له بالفعل أن تمنعيه من الزواج من أخرى لكي ينجب منها إخوة لابنه الوحيد كما يريد ويتمنى إذا كنت ترفضين الطلاق منه وتأبين عليه في الوقت نفسه هذا الزواج، وتملكين عليه من وسائل القهر ما يرغمه على الالتزام بما تريدين.. ولأن ذلك متعذر بالفعل عملياً ومنطقياً فلا ظلم له في موقفك ولا إثم عليك فيه، وإنما يستطيع زوجك إذا تمسك برغبته ورفض أن يصبر عليك عسى أن يحقق لك الله أملك الحسير في الإنجاب مرة أخرى، أو إذا لم يرض بما أنعم عليه به ربه من نعمة إنجاب طفله الوحيد، يستطيع أن يجيبك إلى رغبتك في الطلاق ثم يبدأ حياة جديدة يحقق فيها ما يرجوه لنفسه.. لكن المشكلة الأزلية هي أن كل إنسان منا ينظر إلى الأمر المطروح عليه من زاوية الرؤية الخاصة به وحده فيرى نفسه محقاً تماماً في موقفه.. ويرى الآخرين يفتئتون على الحقيقة، فيختلط الحق لديه برغباته واعتباراته الذاتية وتضيع الحدود الفاصلة بينهما ونفتقد جميعاً النظر الموضوعي للأشياء.

وعفواً ياسيدتي إذا قلت لك إن نفس هذه النظرة الشخصية للأمر قد تنسحب عليك أنت أيضاً بالرغم من إيماني الدائم بحق الزوجة الشرعي في تخييرها بين الاستمرار مع زوجها وبين تسريحها بإحسان إذا رغب في الزواج من أخرى.. وكذلك بحقها في رفض زواج زوجها من أخرى وتمسكها بالانفصال عنه إن لم تقبل بمشاركة امرأة أخرى لها فيه.. فأما أن هذه النظرة غير الموضوعية تنسحب عليك أيضاً فلأنك لا تكتفين بالتمسك بهذا الحق الشرعي والإنساني لك.. ولا تقيمين دعواك في رفض زواج زوجك من أخرى للإنجاب، على أن كل زوجة في الوجود لا يسعدها وجود امرأة أخرى في حياة زوجها، وترغب دائماً في أن تنفرد بزوجها دون غيرها من النساء.. مهما تكن مبرراته للزواج عليها، ولا على أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليكما بابن جميل ولم يحرمكما من الإنجاب كلية.. وقد يكون من الخير لكما أن تقبلا بما اختاره الله لكما، وليس هناك من مبرر قوي لأن تضطرب حياتكما بزواج زوجك من أخرى وما سوف يترتب عليه من مشكلات بينك وبينه إلخ.. وإنما تتجاوزين ذلك إلى محاولة إثبات فساد الفكرة نفسها وترجيح فشلها في تحقيق ما يرغبه زوجك لنفسه من إنجاب إخوة آخرين لابنه الوحيد، وتقيمين دعواك كلها في ذلك على احتمالات قد تتحقق كلها أو بعضها وقد لا تتحقق كلها ولا بعضها.. والمسعى واحد لديك ولديه بالرغم من اختلاف

الهدف، فهدفه هو إقناعك بقبول رغبته في الزواج من أخرى للإنجاب بغير خسائر عاطفية وعائلية يتكبدها على جبهتك.

وهدفك هو إقناعه بالتراجع عن فكرة الزواج من أجل الإنجاب والقبول بالوضع الحالي لكيلا تشقي بوجود امرأة أخرى في حياته.

وكل منكما في سبيل تحقيق هدفه يلوي عنق الحقيقة لإثبات صحة موقفه وأحقيته فيه.

وكل منكما مطالب بأن يكون أكثر عدلاً مع الآخر مما هو عليه الآن فيقول لك زوجك إنه يريد الزواج من أخرى للإنجاب بغير أن يحاول إيهامك بأن رفضك لذلك يكون ظلماً له أو إثماً عليك وتقولين أنت له إنك ترفضين أن تشاركك فيه امرأة أخرى، ولن تسعدي بذلك ولن تسمحي به ومن حقك الحصول على الطلاق قبل أن يبدأ حياته الجديدة، وأن زواجه هذا سيكون له ثمن غال هو تهدم عشه الأول وحرمان طفله من النشأة الطبيعية بين أبويه.. وافتقاد زوجته الأولى وحياته الهادئة معها.

ولا داعي لتخريج الحجج والمبررات لكي يثبت كل منكما للآخر أن الحق في جانبه وحده.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأب الحقيقي!

أبكتني رسالة «البيت الجميل» للطفلة الحائرة التي تعيش مع شقيقها البالغ من العمر اثني عشر عاماً فقط في مسكن مستقل بعيداً عن أمها وأبيها، وتشكو افتقادها وافتقاد شقيقها لأمهما، لأن والدها يرفض بإصرار أن يسمح للأم المطلقة بأن تعيش مع ابنها وابنتها في المسكن الذي وفره لهما ولا يسمح لها برؤيتهما إلا مرة كل أسبوعين ويحرم عليهما الاتصال بها تليفونياً، كما أن الأم لا تستطيع توفير مسكن يجمع بينها وبين الطفلين، في حين يعيش الأب في «بيت جميل» مع زوجته الجديدة وأطفاله منها. وفي ختام رسالتها المؤلمة هذه تطلب منك الطفلة أن «تجد» لأمها رجلاً متديناً يتزوجها ويقبل أن يعيش معها الطفلان ويصبح أباً لهما لكي يجتمع شمل الأم وابنها وابنتها تحت سقف واحد.

وقد يتساءل بعض القراء.. هل هناك مثل هذا الشخص الذي يرحب بسيدة مطلقة وأبنائها ويصبح أباً رحيماً وعادلاً لهؤلاء الأبناء ويتكفل بهم مادياً ومعنوياً ويحنو عليهم بعد أن يكف الأب الطبيعي يده عن الإنفاق عليهما تنفيذاً لشرطه إذا ضمتهم الأم لحضانتها؟.. ورسالتي هذه قد تجيب على هذا السؤال.

فأنا شاب انفصل أبي عن أمي منذ أكثر من ٢٢ عاماً.. وتنبهت للحياة فوجدتني طفلاً صغيراً يلهو في بيت مزدحم بالبنات والأولاد.. وأمي الشابة الجميلة ترعاني وأنام على صدرها كل ليلة في غرفة تنفرد بها في المسكن المزدحم، وفي البيت «أم» أخرى أكبر منها سناً وأكثر تفرغاً لملاعبتى ورعايتي، و «أب» كبير السن لا يراني مرة إلا ويعطيني شيئاً من الحلوى، وهناك «رجل» آخر يظهر كل أسبوعين أو ثلاثة في صالون الشقة.. فيتكهرب الجو في البيت وتختفي أمي في غرفتها، وتسرع الأم الأخرى الكبيرة بمساعدتي على ارتداء ملابسي وهي توصيني بالتزام الهدوء والأدب مع هذا الرجل الذي يجلس في الصالون لأنه «أبوك».. وتدفعني دفعاً إلى مصافحته والخروج معه من البيت فأخرج بعد شيء من المقاومة، وفي الخارج يحاول هذا الرجل إرضائي وشراء الحلوى واللعب لي.. فأنسى مخاوفي بعض الشيء وأتجاوب معه.. ونتمشى في الشوارع.. أو نذهب إلى الملاهي.. أو نزور رجلاً كبيراً آخر وسيدة كبيرة أخرى يقول لي إنهما جدي وجدتي، ثم يعيدني إلى البيت.. فأرجع ومشاعري تتراوح بين الابتهاج بهذه الفسحة وبين الارتياح لعودتي إلى أمي الشابة وفي غرفة النوم تنفرد بي أمي وتسألني باهتمام عما فعلت مع هذا الرجل وماذا قال وماذا قلت له.. وهل سألني عنها؟ أو لم يقل لي شيئاً عنها؟ أو لم يطلب مني إبلاغها أي شيء؟.. فأجيبها على تساؤلاتها بما يعن لي وقتها ويفوتني لصغر سني بالطبع إدراك ماوراء هذه التساؤلات المحرومة ولم أفهم إلا بعد سنوات سبب اكتئابها ووجومها حين أقول لها إنه لم يسألني عنها ولم يطلب منى أن «أسلم» له عليها أو أبلغها بأي شيء!

وتمضي بي الأيام على هذا النحو، ثم يظهر في بيتنا رجل آخر ألاحظ اهتمام أمي الكبير وأبي الكبير به وحفاوتهما الزائدة بزيارته والجلوس معه في الصالون.. وألاحظ أيضاً أن أمي تطلب مني حين يجيء الخروج من غرفتها وتغلق بابها

عليها فيها لفترة طويلة ثم تخرج بعدها وهي «كالعروسة» في كامل زينتها وملابسها، وتدخل الصالون وأتبعها إليه.. وأجلس إلى جوارها وهي تتبادل الكلام مع هذا الرجل.. وأجده يحاول دائماً الحديث معي وسؤالي عن ألعابي وأصدقائي، وأشعر بعد قليل من النفور المبدئي منه بالاعتياد عليه وأبدأ في الاستجابة لمداعباته، وأرى وجه أمي الجميل يشرق بالبهجة حين تراني أتحدث إليه وآلفه.. ثم ينشغل البيت بأشياء جليلة.. وتكثر أمي الصغيرة والكبيرة من الخروج دون اصطحابي معهما.. وأفتقد أمي.. وأشكو للأب الآخر الكبير فينظر إليّ بهدوء ويقول لي إنه سيحدثني «كرجل» ويتوقع مني أن أكون عند حسن ظنه.. ثم يسر إليّ بالخبر المهم وهو أن أمي سوف «تتزوج» من هذا الرجل الذي آراه في الصالون خلال أيام وسوف يسافران معاً في إجازة، وبعد عودتهما سوف أعيش معهما في مسكن جميل.. وأتمتع بحنان أمي وعطف هذا الرجل الطيب.. ولا أفهم مما يقوله شيئاً إلا أنني سوف أعيش أمي في مسكن آخر وأن المطلوب مني هو الصبر على غيابها بعض الوقت قبل أن يحدث ذلك.

ويتحقق كل ما قاله لي بعد فترة من الانتظار.. وأنتقل إلى أمي في مسكن جديد.. ويصبح زائر الصالون هذا عضواً دائماً في حياتنا الجديدة.. وأتعامل معه كما كنت أتعامل مع الرجل الكبير في بيتنا السابق.. وأبي الآخر الذي يدعوني للخروج معه مرة كل أسبوعين.. وأدرك رغم صغر سني أنه قد وافق على بقائي مع أمي و «زوجها» الجديد، لأنه قد تزوج ورفضت زوجته أن يضمني إليه، وحسناً فعلت لكيلا تحرمني من أمي، وفي سن مبكرة أدركت أن ظروفي تفرض عليّ أن أكون «مؤدباً ومطيعاً» مع زائر الصالون الذي أعيش معه.. ومع أبي الآخر كلما طلب أن أزوره وأن أشكره على ما يرسله لأمي من نقود كل شهر لتكاليف حياتي.

وشيئاً فشيئاً بدأت أتعود على وجود زائر الصالون في حياة أمي وحياتي، وبعد عامين أصبح لي أخ صغير أحبه وألاعبه.. كما أصبح لي في البيت الآخر أخت أخرى لا أراها إلا حين أزور أبي، وشيئاً فشيئاً أيضاً بدأت أحب هذا الرجل الذي تزوج من أمي، وأتقبل كل توجيهاته لي بصدر رحب وألاحظ أنه رجل طيب ويصلي ولا ينهرني ولا يضربني أبداً ولا يصيح في وجه أمي، وإنما ينفذ كل رغباته بالهدوء والكلام الطيب. كما بدأت ألاحظ أيضاً أن أمي تحبه وترعاه وتقول لي عنه إنه تعويض ربها لها وتلفت نظري إلى أنه يحبني ويخاف عليّ، ولا يبخل بشيء من مطالبي. وبالفعل فلقد أدخلني الرجل مدرسة لغات وأشرف على تعليمي وتربيتي وعلمني أن أعرف ربي وأن أصلي الفروض في أوقاتها ثم بدأ يؤمني في الصلاة ويرفع يديه بالدعاء بعدها ويطلب مني أن أفعل مثله وأدعو الله أن يحفظني وإخوتي وأمي وأبي وجدي وجدتي من كل سوء.

وحين بلغت مرحلة المراهقة.. وبدأت أتمرد على بعض الأشياء.. كان هذا الرجل هو الذي يتدخل بيني وبين أمي ويصلح بيننا ويجلس معي في الشرفة وينصحني ويطلب مني أن أكون رفيقاً بها لأنها قاست الكثير.. فلا عجب أن أحببته حباً من القلب لأني وجدت لديه حنان الأب الحقيقي.. ولم أجد مثله لدى أبي الطبيعي الذي

يكتفي بإرسال المبلغ الشهري، ولا أجد حين آراه ما أتحدث فيه معه فيحل الصمت بيننا بعد تبادل السؤال عن الأحوال.

وبعد فترة أخرى، طلب أبي الآخر أن أنتقل إلى بيته لكي أكون تحت إشرافه في هذه المرحلة الحرجة من العمر، ولم أرحب بذلك في أعماقي لكن من كانت ظروفه مثلي لا يكون له حق الاختيار.

وانتقلت للإقامة معه ومع زوجته وإخوتي منه، وعانيت الأمرين من زوجة أبي التي عاملتني من اليوم الأول على أنني ابن ضرتها وليس كأخ لأطفالها، وانزويت في غرفة يشاركني فيها إخوتي معظم الوقت، واختار لي أبي إحدى كليات الفن التي يفضلها لي ولم أكن أرغب في ذلك، لكني كتمت رفضي لكيلا أغضبه كعادتي معه ومع غيره وظللت عدة أيام لا أنام.. وأبي الحقيقي يسألني عما بي ٠٠ ويلح عليّ في السؤال.. وأنا لا أبوح بشيء إلى أن رجع من الخارج ذات مساء وبادرني متهللاً بأنه أقنع أبي بعد رجاء طويل وعناء شديد أن يدع لي حق اختيار دراستي.. وكانت ليلة سعيدة في حياتي.. والتحقت بالكلية التي أرغبها بالرغم من احتجاج أبي وأمضيت سنوات الدراسة بتفوق وأبي الفعلي يشجعني ويسعد بنجاحي ويحتفل به احتفالاً صاخباً ويطلب من أبنائه أن يقتدوا بي، إلى أن تخرجت متفوقاً وأديت الخدمة العسكرية وعملت بوظيفة لائقة وبدأت أتطلع لما يتطلع له الشباب في مثل سني، وارتبطت عاطفياً بزميلة لي وفاتحت بمشورة أمي أبي الذي أحمل اسمه في رغبتي في خطبتها.. فرفض ذلك رفضاً باتاً وبغير أن يسمع أية تفاصيل قائلاً لي إن الوقت مبكر جداً للتفكير في مثل ذلك. ولم يقتنع بكل ماقلته له من أنني أرغب فقط في تقديم الشبكة لفتاتي وأن أمامنا أربع سنوات إلى أن نتزوج وصارحت فتاتي بما حدث وأعفيتها من عهدها معي .. لكنها لم تقبل ذلك، وفوجئت بأمي بعد يومين تقول لي إنها اتصلت بها وأبلغتها استعداد أسرتها لقبول دبلتين فقط إلى أن تتحسن الأحوال، ووجدت أبي الحقيقي يدعوني للجلوس معه في الشرفة كعادته كلما أراد أن يتحدث معي في شيء مهم ويسألني هل تحبها حباً حقيقياً؟ وأجيبه بالإيجاب فيقول لي: إذن لا تفرط فيها لكيلا تندم على ضياعها من يدك ولسوف يعينك الله سبحانه وتعالى على تكاليف الزواج، ثم يقول لي إنه حاول مع أبي كثيراً لإقناعه بالتقدم لأسرة هذه الفتاة. وأصر على الرفض فاستأذنه في أن ينوب عنه في أن يخطبها لي لأنه كما قال له «والد» أيضاً لي فلم يجب بالرفض أو الإيجاب وإنما قال له: افعلوا ما تشاءون لكني لن أساهم في هذا الزواج!

واتفقنا في هذه الجلسة على أن نتقدم للأسرة بالدبلتين.. وفي الموعد المحدد ذهبنا إلى بيت فتاتي أنا وأمي وأبي الحقيقي وإخوتي منه، وفي الطريق فاجأني الرجل الطيب بإخراج علبة مجوهرات قدمها لي سعيداً وهو يقول إنها هديته لي في مناسبة الخطبة، وفتحتها فإذا فيها أسورة ثمينة فصرخت من المفاجأة وطفرت الدموع من عيني.. وخطفت يده من على مقود السيارة لأقبلها شكراً وعرفاناً، وذهبنا إلى بيت خطيبتي وقدمنا الشبكة وسعدت سعادة طاغية.

وفي الأيام التالية سعدت بحياتي وخطيبتي وأمي وأسرتي، ولم يكدرني شيء سوى إصرار أبي على ألا يزور أسرة خطيبتي أو يسمح لي باصطحابها معي في زيارة لبيته لكي تتعرف عليه.

وبدأت أسرة خطيبتي تتحدث عن الشقة.. وأجبت بأني أدخر نصف مرتبي وآمل أن أستطيع دفع مقدم لشقة صغيرة خلال ثلاثة أعوام.. كما أن أمي سوف تساعدني ببعض مدخراتها من عملها.. وقد يساعدني أيضاً أبي الطبيعي وهو قادر على ذلك، ورويت لأبي الفعلي وأمي هذا الحديث.. فإذا بأمي تكشف لي عن فضل جديد. من أفضال زوجها عليّ.. وهو أنه منذ عشر سنوات قد رفض بعد أن تحسنت أحواله المادية أن يسمح لها بإنفاق المبلغ الشهري الذي كان أبي يرسله لي، وأصر على أن تفتح به دفتر ادخار باسمي في البنك لأستعين به على أمري بعد الزواج، وفتح لأختي وأخي منه دفترين مماثلين في نفس الفرع، وواظب خلال السنوات العشر الماضية على وضع المبلغ الذي يرسله أبي لي في دفتري.. وبالتالي فلن يكون حلم الشقة بعيد المنال إن شاء الله مع ما أدخره من مرتبي.. ولا يمكن أن تتخيل عمق ما أحسست به من حب وعرفان لهذا الرجل، ولا يمكن أيضاً أن تتصور ما أصابني من هلع صادق حين رجعت من عملي ذات يوم فعلمت أنه قد فاجأته وهو في عمله أزمة قلبية نقل على أثرها للعناية المركزة.. فهرولت إلى المستشفى.. وأمضيت الليل واقفاً على باب الغرفة.. واعتصمت بالمكان ثلاثة أيام حتى تحسنت حالته ونقل إلى غرفة أخرى وقضيت معظم الوقت معه وشعرت بالفخر والاعتزاز وأنا أرى باقات كثيرة من الورد تنهال عليه وزواراً عديدين يطمئنون على سلامته.

ومضت المحنة بسلام واستردت اطمئناني للحياة وتعاقدنا على شقة لكي نتسلمها بعد عامين ودفعنا مقدم الثمن وواظبت على زيارة أبي الطبيعي مرة كل شهر في بيته بالرغم من تحفظه معي وجفاء زوجته لي وبرود مشاعر إخوتي منه تجاهي، وبالرغم أيضاً من تمسكه رغم كل ماحدث بعدم زيارة بيت خطيبتي أو التعرف على أهلها.. وقد فعلت ذلك طلباً لرضا ربي.. وأيضا لأن أبي الحقيقي كان يوصيني دائماً بألا أقطع صلتي بأبي مهما حدث منه، واقترب موعد تسلم الشقة وساهمت أمي بمدخراتها من عملها في دفع المهر.. ورفض أبي الطبيعي المساهمة فيه بدعوى أنه لم يكن راضياً عن الارتباط في هذه السن المبكرة، وحددنا موعد الزفاف في شهر مارس من هذا العام عقب تسلم الشقة وبدأنا نستعد للزواج، ثم فجأة أصيب أبي الحقيقي بنوبة قلبية أشد من الأولى ودخل العناية المركزة.

وأصبحت أخرج من عملي فلا أذهب للقاء خطيبتي كما كنت أفعل في الأيام السعيدة وإنما أرجع إلى البيت.. وأتناول طعام الغداء مع أخي وأختي وأمي وألبي طلباتهم.. وأشرف على مذاكرة الإخوة.. ولا أخرج من المساء إلا إذا اطمأننت على كل شيء في حياتهم.

ولقد مضت الآن خمسة شهور على وفاة «أبي» ولم تفارقني صورته ولا رنين صوته الهادئ الرزين في مخيلتي، وفي كل المواقف التي تواجهني فإني أتمثله.. وأتسمع صوته وهو ينحني ويرشدني وأعمل بما كان سيقوله لي لو كان على قيد

الحياة.. وقد بدأت أمي تتمالك نفسها، وتقول لي إنها لم تسعد بالحياة وبالزواج إلا هذا مع

الرجل الطيب.. وهي تضع صورته وهو يحتضنني من ناحية ويحتضن أمي وأخوتي من الناحية الأخرى في صدر الصالون وتفتح بيتنا لأهله وإخوته وأبنائهم وتستقبلهم بحفاوة وحب وتقول إنها تشم رائحته في وجوههم.

ومازلت كما عاهدت هذا الرجل الطيب في حياته أحرص على زيارة أبي مرة كل شهر ولا أحفل بتحفظه معي أو حتى تجهمه في وجهي أحياناً إعلاناً عن استيائه غير المفهوم أسبابه مني، كما لا أحفل أيضاً بالمشاعر العدائية الصامتة التي تكنها زوجته ضدي بلا سبب معلوم، وأعتبر هذه الزيارة واجباً دينياً أؤديه في صبر وأرجو من أدائه رضا ربي ومغفرته كما علمني أبي الحقيقي.

ولقد كتبت رسالتي هذه بعد أن قرأت رسالة الطفلة الصغيرة التي تطلب «أبا» لها ولشقيقها، وأبوها الطبيعي يعيش في بيته الجميل غير بعيد عنهما في المكان، لكي أقول لمن لا يصدق إن في الدنيا بالفعل رجالاً من هذا النوع يمكن أن يكونوا آباء حقيقيين لمن لم ينجبوهم وآخرين ليسوا آباء لأبنائهم في الحقيقة ولو كانوا قد أنجبوهم بالفعل من أصلابهم.. فأرجو أن تجتهد في «إيجاد» أب آخر كذلك الأب الطيب الذي تربيت أنا في أحضانه، لوالدة هذه الطفلة الحائرة.. وأرجو أن تعلم أن لك أجراً كبيراً بإذن الله إذا وفقك الله في إغاثة هذه الطفلة وشقيقها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

كان أمير الشعراء أحمد شوقي يقول:

ليس اليتيم من انتهى أبواه

من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له

أما تخلت أو أبا مشغولا

وبهذا المفهوم فما أكثر يتامى الحياة المعنويين الذين يكابدون أقدارهم مع أم تخلت أو أب مشغول.. وما أرحم السماء بمن تعوضه عن أبيه أو أمه بأم حقيقية أو أب حقيقي.. لم ينجبه من صلبه فيحدب عليه ويتحمل مسؤوليته الإنسانية والتربوية بهذا القدر من الأمانة التي تحملها عنك هذا الرجل الطيب. ولا عجب في أن تشعر عند رحيله عن الحياة باليتم الحقيقي والخوف من المجهول بعد أن انكشف عنك غطاء هذا الأب الأمين.

لقد تذكرت وأنا أقرأ رسالتك ما قاله الإمام المحدث ابن ماجه من أنه: خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء

إليه.

ومع أنك لست يتيماً بالمعنى الحرفي للكلمة.. إلا أن رفق هذا الرجل الصالح حقاً وصدقاً بك قد حماك من كثير من غوائل اليتم المعنوي وآثاره السلبية نفسياً وتربوياً على من يكابده. والآن فلقد جاء دورك ياصديقي لكي ترد الدين لصاحبه فتكون كما أراد لك أن تكون إنساناً بمعنى الكلمة يرعى حدود ربه وينثر بذور الخير والعطف والرحمة والعدل في مجتمعه المحيط به.

فلقد أعطاك أبوك الحقيقي المثل في أن تكون إنساناً يضيء الحياة بوجوده فيها.. ويزيد من مساحة الحب والعطف والرحمة والعدل الإنساني في الدائرة التي يتحرك في مجالها. وعلمك كيف تكون «إنساناً» يعطي للآخرين فيجني ثمار عطائه لهم وللحياة حباً صادقاً وعرفاناً مخلصاً له ووفاء لذكراه. والوفاء بالدين من شيم الأوفياء وأصحاب المروءات، فَأَدِ دَيْنَك على خير وجه للحياة ولهذا الرجل الطيب الذي أحبك ورعى حدود الله فيك، ولم يفرق بينك وبين من أنجبهم من صلبه.. وقم بواجب الأب الحقيقي مع إخوتك منه.. بل ومع إخوتك الآخرين من أبيك الطبيعي إذا احتاجوا ذات يوم إلى مساندتك لهم في معركة الحياة.. فمن عرف قلبه الرحمة الصادقة لا يفرق بين الضعفاء حتى لو كانت جهالة الحياة قد أبعدت بعضهم عنه في بعض الفترات.. والإنسان هو ما يفعله كما قال ذات يوم المفكر الفرنسي أندريه مالرو وليس ما يفعله به الآخرون.. ولقد لمست أنت كيف خلف «أبوك الحقيقي» وراءه كل هذا الأثر الطيب وهذه الذكرى قدراً منه وأعظم شأناً سبحانه وتعالى. واستقد بتجربة أبيك الحقيقي في حسن معاشرة والدتك وفي الأثر العظيم الذي خلفه في نفسها ووجدانها في إحسان عشرتك لزوجتك حين يجمع بينكما عشكما الصغير، كما لا تنس أيضاً ماكنت تشعر به وأنت طفل حائر فرضت عليه ظروفه الخاصة أن يكون قليل المطالب، شاعراً بالانكسار النفسي ويكتم رغباته الحقيقية اتقاء لغضب الآخرين، ويحس إحساساً مبهماً ومؤلماً في نفس الوقت بأن من كان مثله لا يملك حق الاختيار أو حق التعبير عما ينطوي عليه صدره من رغبات وأمنيات، وحاول بكل ما تملك من جهد أن تجنب أخويك الصغيرين مرارة هذا الانكسار النفسي وآثاره السلبية الغائرة على الشخصية، فللصغار دائماً ومهما كانت ظروفهم حق التعبير عن أنفسهم ورغباتهم وأمنياتهم بغير خوف من أثر ذلك على من يرعون شئونهم، ولهم أو ينبغي أن يكون لهم دائماً ما يكون لغيرهم ممن يعيشون حياتهم الطبيعية من حق الرفض والقبول وحق الاختيار. وبذلك تقدم للحياة إخوة أسوياء تجنبهم مرارة ما أحسست به أنت وأنت تقف أمام أبيك الطبيعي عاجزاً عن التعبير له عن رغبتك في العودة للإقامة مع والدتك أو وأنت تكتم رغبتك الخفية في الالتحاق بكلية بعينها توهماً منك أن مثلك لا يكون له حق الاختيار. وخير الدروس هو ما نتعلمه من تجاربنا المؤلمة في الحياة، وخير البشر هم من يسعون دائماً لأن يجنبوا أعزاءهم والآخرين ما عانوا هم من قبل مرارته وخبروا قسوته عليهم حين كانوا ضعافاً حائرين.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

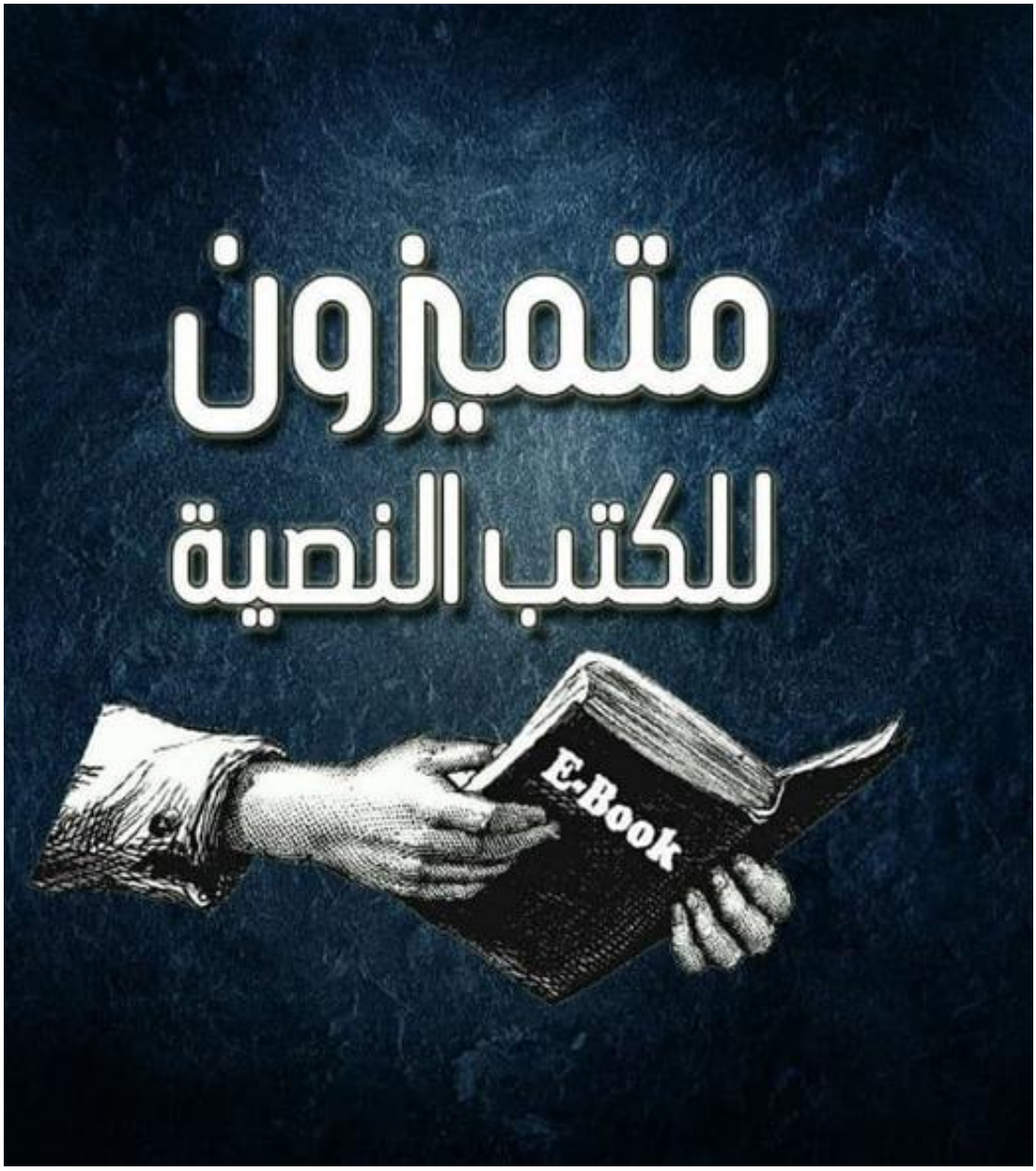
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

هذا الكتاب: تحية المساء..

مقدمة..

الرهان الخاسر!

تحية المساء

بيئة الذئاب!

الصمت النبيل!

دورة الأيام!

النظرات القاتلة!

النظرة الجديدة!

القرار السليم!

الستائر المسدلة!

الحب الزائف!

ثمن الاختيار!

الذكريات السعيدة!

السنوات الضائعة!

بداية الطريق!

الشاعرة الجريحة!

موسم الحصاد!

الانتقام الوهمي!
الموقف العنيد!
الانتقام من الماضي!
الشيء العادي!
الأب الحقيقي!